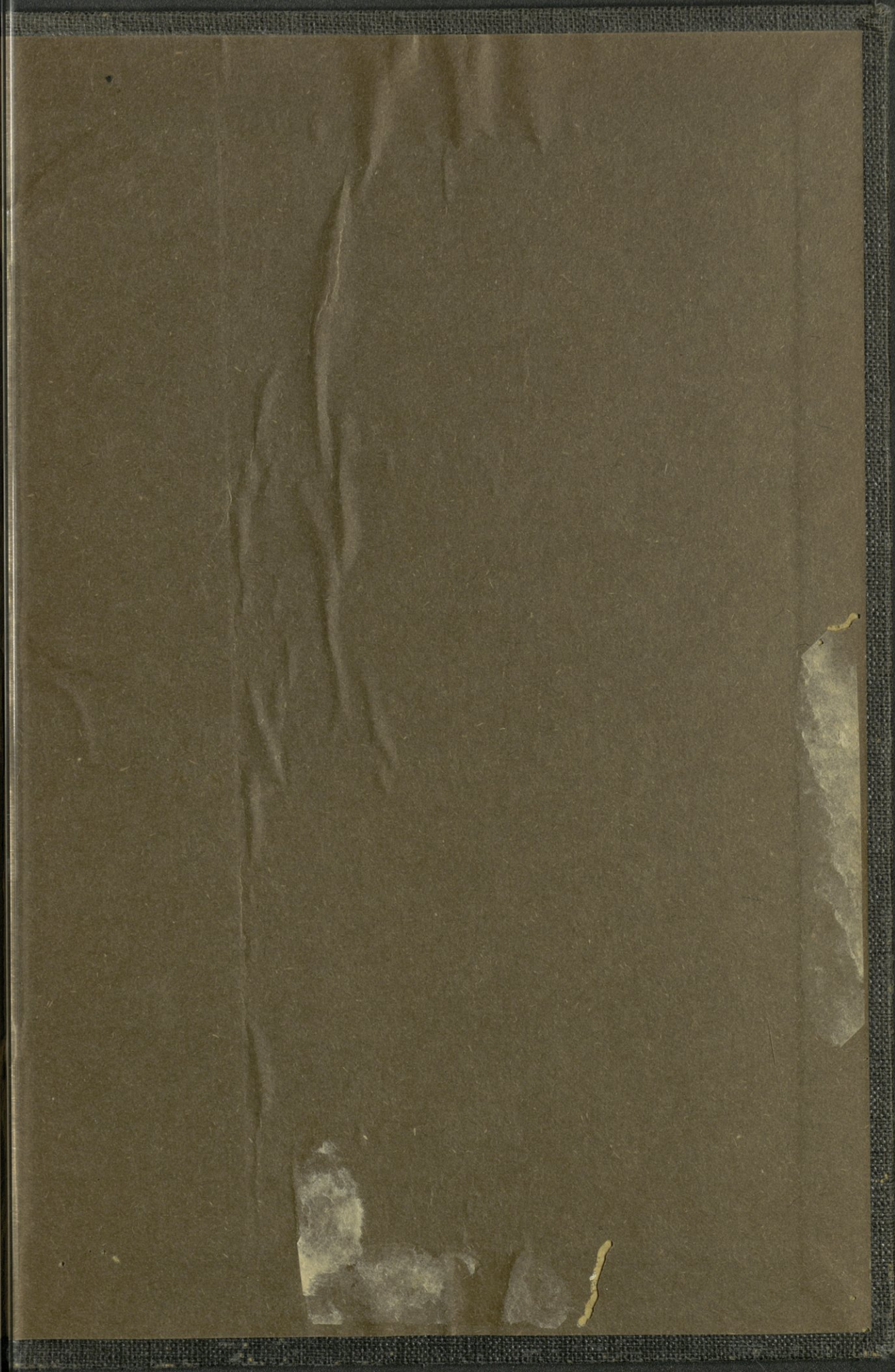
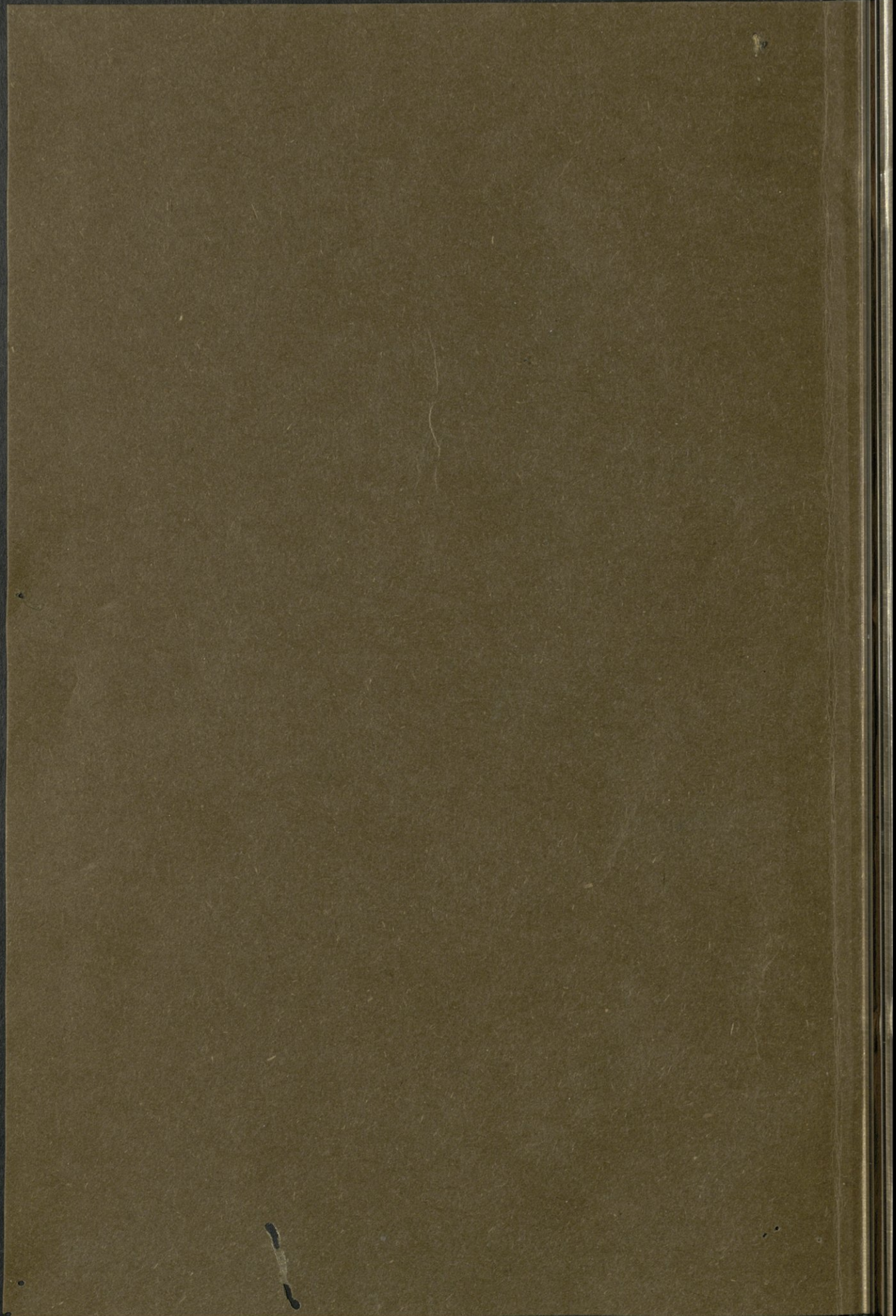
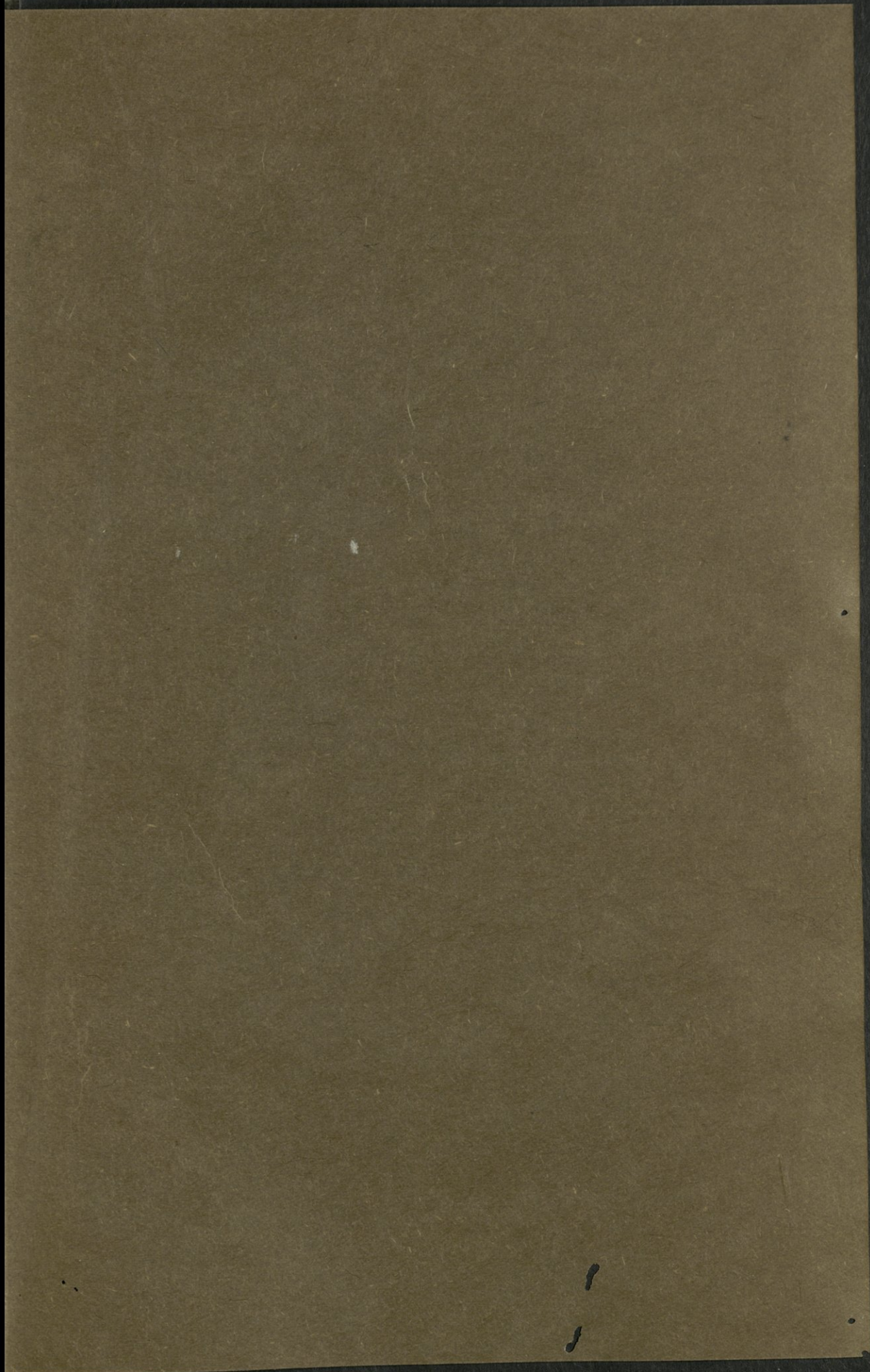


المناجاة في الاسلام

زيات

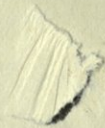






٢٤٠٥
٢

الصَّيْبُ فِي الْإِسْلَامِ



والله الا ان يتبعوا

(1945. Sullivan)

247.9
Z394A
e.2
هدايا المصرة



وثائق

لدرس تاريخ البطريركيات الملكية

٦

الصليب في الإسلام

درس اربي مذهبي تاريخي مقتبس من الاصول الإسلامية

بقلم

حبيب زيات

١٩٣٥

57494

مطبعة القديس يوسف في بيروت

Gift: Author?
East. Aug. 1938

11



[Faint, illegible handwriting]

[Faint, illegible handwriting]

[Faint, illegible handwriting]

4692

[Faint, illegible handwriting]

البسملة

اصطلح النصارى على استعمال التصليب في مبتدأ كل قول وعمل ولا سيما في مفتتح الكتب الدينية والصلوات . طلباً للتبرك والتوفيق والمعونة . ولا مرأ ان البسملة الاسلامية انما أريد بها عند وضعها مجازاً هذه الاصطلاح . ومقابلته بمثله . ولذلك أضيف فيها الى اسم الله صفتان متقاربتان اي الرحمن الرحيم . لتكون الاسماء الحسنى ثلاثة ازاء تثليث النصارى . واول ما وردت على هذه الصفة في ام القرآن . وعم استعمالها على الاثر حتى اصبح كالسنة والفرس . ومن الغريب ان بعض النصارى منذ اوائل عهد العباسيين كانوا لا يرون اقل بأس بالاستعاضة احياناً بهذه البسملة عن البسملة النصرانية . ومن اشهر من اختارها منهم عبد المسيح بن اسحق الكندي من علماء النساطرة ومن ذرية ملوك كندة . في جوابه على رسالة وجهها اليه عبد الله بن اسماعيل الهاشمي من ذوي قرابة الخليفة العباسي عبد الله المأمون . فاستفتح رده عليه بقوله « بسم الله الرحمن الرحيم » . وكان الاقباط خصوصاً من اسرع النصارى واحرصهم على التشبه بالمسلمين في كل عاداتهم وشاراتهم واحوالهم .

والتمثل بهم في اختيار الاسماء والسكنى والالقباب الاسلامية طمعا في مساواتهم وخشية ان يتميزوا عنهم فيعرفوا. ويتعرضوا للذلة والصغار. وبالغوا في مثل هذه المحاكاة والاقتداء حتى لم يتوقف نسخهم وكتبتهم عن نقل الفاظ البسملة القرآنية في اوائل التوراة والانجيل كالتي تقرأ في نسختي التوراة ترجمة الحارث بن سنان بن سنباط رقم Laud. Or. 258 و Hunt. 186 من خزانة اكسفرد. وقد تكررت في الثانية منها في غير موضع واحد. ومثلها في خزانة بريتش موزيوم كتاب الانجيل رقم Add. Or. 9061. بخط مغربي تعريب احد الاندلسيين المستعربين (Mozarabes) تحرري فيه نمط التعبير الاسلامي وبداه بقوله «بسم الله الرحمن الرحيم وبه استعين» وقد تخرج بعضهم قليلا من مثل هذا التقليد الحرفي فادخل في الاسلوب القرآني بعض التغيير وكتب «بسم الله الرؤوف الرحيم» كما في نسخة قديمة من الكتاب المقدس رأيناها اخيراً في

(١) مما يدل اتم الدلالة على ولع الاقباط بتقليد المسلمين اعتياد قوم منهم الاختتان. قال احد علمائهم الراهب الطيب المكين جرجس اخو الاسعد ابراهيم كاتب الجيوش المنصورة في الجزء الثاني من كتابه «الحاوي المستفاد من بديهة الاجتهاد» نزويه بعبارة الحرفية كما وجدناها: «ان الذين يروا الختان اللحمي من جماعة البيعة الارثوذكسية يحتجوا انهم انما يفعلوا ذلك لاحتمال ان ابناهم قد يتفق لاحدهم الخلطة باحد الامم الخارجة عن الايمان المسيحي لغرض من الاغراض فيحملهم على الختان بعد المعمودية. فيوافق على ذلك رغبة منه في استمرار عشرة ذلك الخارجي. فيقع في مخالفة القوانين البيعية. اذ كانت منعت الختان اللحمي.» وفي هذا الفصل (الاول من الباب الرابع) انكار طويل لهذه العادة القبطية (خزانة اكسفرد Hunt. 182) ولا يخفى ما في مثل هذه العادة المنكرة في الدين من شدة ميل الاقباط الى مناظرة المسلمين ومجاراتهم حتى في الخروج عن سنن الادب والعفة

دير مار يوحنا الصابغ في الشوير (لبنان) كتبها الناسخ القبطي برسم خزانة الشيخ ابي الفضائل هبة الله بن ابي الليث وهو شقيق ابي البركات يوحنا الملكي الذي تولى سنة ٥٠١ للهجرة (١١٠٧ م) ديوان التحقيق في الدولة الفاطمية. وراق هذا الابدال اليسير بعض اساقفة الاقباط فلم يرَ بأساً في انتحال هذه البسمة المنقحة . وخطها في مفتح وقفية له لكتاب النبوءات رقم Or. 1314 في خزانة لندرة . ووضع بجانبها علامته القبطية « طاناسيوس اسقف ابوتيج » بتاريخ سنة ١٥١٠ للشهداء (١٧٩٤ م) . وهو ما يدل على ان هذا الاصطلاح المنكر كان لا يزال شائعاً سائغاً حتى ختام القرن الثامن عشر . وورد نظير هذه البسمة في الورقة ١٨٥ من المخطوط رقم Add. 4523 بجانب توقيع البطريرك بطرس القبطي

ولما كان في النية - والاشياء مرهونة باوقاتها - ان نباشر في الآجل القريب نشر بعض صفحات وفصول من تاريخ النصرانية في الاسلام . رأينا ان نقدم بين يدي مثل هذه المباحث الآخذة بنصيب من تاريخ الملتين . المشاركة في تعريف غابر ايام الفريقين . شرحاً لطيفاً عن ماضي الصليب في الاسلام نجعله كالبسمة فاتحةً للتأليف . ونعدد فيه كل اثر وخبر للصليب او اشارة اليه في الادب والشعر والتاريخ والمذاهب والعادات . وننبه على بعض ما تداول عليه من الاطوار والوقائع في الحياتين الدينية والمدنية . بين رفع وخفض . وظهور وخفاء . وتشدد فيه وتسامح . الى ما شاكل ذلك من الاخبار والروايات التي حرصنا على جمعها اثناء اسفارنا وزياراتنا للخزائن الغربية والشرقية . مما نرجو ان يكون فيه فائدة ومستمع

للقارئ وعبرة وبيان لرائد الاخبار النصرانية في الشرق . وهذه
 ولا جرم اول مرة يُشار فيها الى مثل هذا المبحث الشاق الطريف .
 ولم يسبق لاحد قبلنا كلام في معناه . ولا يخفى ما له من الخطر
 والشأن في درس ماضي النصرانية في الاسلام . وما تطلبه منا من
 كثرة التنقيب والتقليب . وإدمان المطالعة والمراجعة



الصليب في اللغة

قال الليث : الصليب ما يتخذُه النصارى قبلةً . والجمع صُلبان
 وُصُلب . وثوب مصْلَب فيه نقش كالصليب (لسان العرب) .
 وللصليب فيما عدا ذلك معانٍ جمعها ابو اليمن تاج الدين الكندي
 في ابيات عملها في عمارة اليميني الشاعر المعروف حين صلب في ايام
 السلطان صلاح الدين بمصر لمخامرته على إعادة الدولة الفاطمية . وهي
 عمارة في الاسلام ابدى خيانة وبائع فيها بيعة وصليبا
 فامسى شريك الشريك في بغض احمد واصبح في حب الصليب صليبا
 وكان خبيث الملتقى ان عجمته تجد منه عوداً في النفاق صليبا
 سيلقى غداً ما كان يسعى لاجله ويُسقى صديداً في لظى وصليبا
 فالصليب اذن في عرف بعض اللغويين ليس الا محراب النصارى
 او الناحية التي يستقبلونها في صلواتهم . واذا اراد كتبة الاسلام
 ان يعنوا الخشبة التي عُلق عليها المسيح قالوا « صليب الصلبوت » .
 ومنه قول ابن العديم في اخبار وقعة حطين سنة ٥٨٣ للهجرة (١١٨٧ م)
 « وكان من جملة الغنيمة في يوم المصاف صليب الصلبوت وهو
 قطعة خشب مغلفة بالذهب . يزعمون ان ربهم صلب عليها وضربت

(١) شديداً . من الصلابة

(٢) خالص النسب

(٣) بمعنى الصديد . وهو ما يسيل من جلود اهل النار اخذاً من قول القرآن :

ويسقى من ماء صديد

في يديه المسامير . احضروه معهم المصاف تبر كآ به ورفعوه على رمح عال^١»

وعلى ذكر هذا الصليب روى الذهبي ان السلطان صلاح الدين ارسل به بعد استيلائه عليه الى بغداد . وهذا نص ما اورده في جملة اخبار سنة ٥٨٥ (١١٨٩ م) قال :

« في ربيع الاول وصل القاسم ابن الشهرزوري رسولاً من السلطان صلاح الدين . وصحبته صليب الصلبوت الذي ترعم النصارى ان عيسى عليه السلام صلب عليه . فألقي بين يدي عتبة باب النوبي فبقي اياماً^٢»

ولكنه عاد فزعم ان هذا الصليب كان موجوداً في خزائن خلفاء مصر . اخذه صلاح الدين منها وبقي محفوظاً الى ان اهداه السلطان الملك الكامل بعد استرجاعه دمياط من يد الفرنج . ووهبه لصاحب عكا منهم سنة ٦١٦ (١٢١٩ م) وهذه عبارة الذهبي بتاريخ السنة المذكورة :

« لما سلم الفرنج دمياط اطلق السلطان (الملك الكامل) رهائنهم . وبقي صاحب عكا حتى يطلقوا رهائن السلطان . فابطأوا . فركب السلطان ومعه صاحب عكا . وكان خلقه هائلة . فاخرج السلطان من صدر قباه صليب الصلبوت الذي كان صلاح الدين اخذه من خزائن خلفاء مصر . فلما رآه صاحب عكا رمى بنفسه الى الارض . وشكر السلطان . وقال هذا عندنا اعظم من دمياط .

(١) زبدة الحلب في تاريخ حلب خزانة باريس رقم ١٦٦٦ ص ٢١١

(٢) التاسع من تاريخ الاسلام في خزانة اكسفورد Laud. Or. 304 f^o 162^a

وقال له السلطان خذ هذا تذكاراً من عندي . واركب في مركبك
ورُحْ نَقْدَ رَهائِننا . فلم يفعل وبعث الصليب مع قسيس^١ «
ولم نجد من ذكر هذين الصليبين سوى الذهبي . واذا صحَّت
كلتا الروايتين يكون صليب خلفاء مصر قطعة صغيرة من العود
الكريم ولذلك تمكن الملك الكامل من وضعه في صدر قبائه .
ويكون الصلبوت المرسل الى بغداد قد ردَّ بعد ذلك الى صلاح
الدين حتى وعد بتسليمه في جملة الشروط التي عاهد عليها الصليبيين
بعد موقعة عكا سنة ٥٨٧ (١١٩١ م)

ويقال في تقبيل الصليب « مسحه وتمسَّح به » قال جرير في
بني تغلب من نصارى العرب :
رويدكم مسح الصليب اذا دنا هلالُ الجزى واستعملوا بالدرهم^٢
وله ايضاً فيهم

ولم تمسح البيت العتيق اكفها ولكن بقربان المسيح تمسَّح^٣
والصليب عند كتاب الانشاء الشريف هو عين النصرانية
وشعارها . ولذلك قلما اشاروا الى الدين المسيحي الا بلفظ « دين
الصليب » كما في نص الهدنة التي استقرت سنة ٦٨٢ للهجرة
(١٢٨٣ م) بين السلطان المنصور قلاوون وبين افرنج عكا
وصيدا وعثليث وبلادها . قالوا :

« كذلك يعتمد مولانا السلطان . . . على ان تكون كنيسة

(١) مجلد من تاريخ الاسلام في خزانه بريتيش موزيوم Or. 52 f^b 184^b

(٢) نقائض جرير والفرزدق ص ٤٠٢

(٣) = = = ص ٥١٠

الناصره واربع بيوت من اقرب البيوت لزيارة الحجاج وغيرهم من
دين الصليب^١»

وللقيسراني يمدح السلطان نور الدين بعد قتل البرنس صاحب
انطاكية :

ضربت ككبشهم فيها بقاصمة

اودى بها الصلْب وانحطت بها الصلْب

ولابن منير في مثل ذلك :

صدَم الصليب على صلابه عوده فتفرقت ايدي سبا خشباته^٢

ومثل ذلك قول ابن عنين في وقعة دمياط مشيراً الى الملكين

الشقيقتين موسى ومحمد ابني السلطان الملك العادل ابن ايوب :

لو لم يقم موسى بنصر محمد لعلا على درج الخطيب الاسقف

لولاه ما ذل الصليب واهله في ثغر دمياط وعز المصحف^٣

ومن هذا الباب ايضاً قول تقي الدين اسمعيل ابن ابي اليسر

في قصيدته المشهورة لما اكتسح التتار بغداد :

علا الصليب على اعلى منابرها وقام بالامر من يحويه زنار^٤

فالنصارى عندهم « اتباع الصلبان » « وعباد الصليب وعبدة

(١) تشریف الايام والعصور بسيرة الملك المنصور . باريس رقم ١٧٠٤ ص ٨٤

(٢) زبدة الحلب لابن العديم ص ١٧٢

(٣) ديوان ابن عنين . الفاتيكان رقم ٣٦٠

(٤) الحادي عشر من تاريخ الاسلام للذهبي . اكسفورد Laud. Or. 305 fo 249a

(٥) تاريخ الدولة الاتابكية ملوك الموصل لابن الاثير في مجموع مؤرخي الحروب

الصلبية ص ٧٢ . المطبعة الاهلية . باريس

الصلبان» ومن ذلك قول عماد الدين الكاتب الاصبهاني من رسالة انشأها عن السلطان صلاح الدين الايوبي الى ديوان الخلافة ببغداد مبشراً بفتح بيت المقدس سنة ٥٨٣ للهجرة (١١٨٧ م)

« اسكنه الفقهاء والعلماء . بعد الجهال والضلال من بطرك وقس .

وعبدة الصليب ومستقبلي الشمس^١ »

وممن مدح بانه « قامع عبدة الصلبان » السلطان صلاح الدين في خطبة ابن زكي الدين الدمشقي بعد فتح القدس^٢ والملك الظاهر بيبرس البندقداري في مقدمة كتاب الاعلاق الخطيرة لابن شداد^٣

واكثر ما يُسمى النصارى في الكتابات السلطانية باسم « الطائفة الصليبية » واطلقوا لقب « كبير الطائفة الصليبية » على بطرك الممكانية^٤ وعلى متملك سيس^٥ (اي ملك الارمن في كيليكية) . وعلى صاحب دنقلة^٦ . ووصفوا كلاً من صاحب القسطنطينية وملك الكرج بانه « كنز الطائفة الصليبية^٧ » ونعثوا صاحب البندقية بانه « جمال الطائفة الصليبية وذخر الملة الصليبية^٨ »

ويطلق الصليب في الكلام على جيوش الروم على عدد عشرة

(١) ارشاد الاريب لياقوت الرومي ج ٧ ص ٨٧ . وانما سمي النصارى مستقبلي

الشمس لانهم يتجهون في كنائسهم وصلواتهم جهة المشرق

(٢) وفيات الاعيان لابن خلكان ج ١ ص ٥٩٣

(٣) نسخة خزانة الفاتيكان رقم ٧٣٠ ص ٢

(٤) ديوان الانشاء . باريس رقم ٤٤٣٩ ص ١٧٥

(٥) صبح الاعشى للقلقشندي ج ٦ ص ١٧٨

(٦) = = = ج ٦ ص ١٨٠

(٧) = = = ج ٦ ص ١٧٧

آلاف مقاتل . ومنه قول ابن حمدان لاهل حلب حين نزل عليهم
امير الجيوش والي دمشق من قبل العزيز بالله الفاطمي وضجروا من
طول حصاره . فقالوا لابن حمدان :

« امّا ان تدبّر البلد والا سلّمناه . فقال اصبروا عليّ ثلاثة ايام .
فان البرجي والي انطاكية (من قبل الروم) قد سار الى نصرتي
في سبع صلبان^١ »

ومن الشواهد التي نصّ فيها على هذا العدد قول الكتبي في
اخبار سنة ٢٩١ (٩٠٣ م)

« فيها بعث ملك الروم عشرة صلبان . مع كل صليب عشرة
آلاف . فاغاروا على اطراف البلد . وقتلوا خلقاً كثيراً^٢ . وهو
مأخوذ من قول عريب : « سنة ٢٩١ ورد الخبر من الثغور بان صاحب
الروم وجه اليها عسكرياً فيه عشرة صلبان ومائة الف رجل .
فاغاروا وكبسوا واحرقوا^٣ »

واحسن تشبيهه ورد فيه ذكر صلبان الروم بيت لابراهيم الحرّاني
المعروف بعين بصل . من قصيدة في وصف دمشق . وهو
كأن منشورها اذ لاح مبتسماً جيش من الروم باتت فيه صلبان^٤
ولا حاجة الى التنبيه على لقب الصليبيين الذي اتخذته الفرنج
حين قدموا لافتتاح بيت المقدس وسائر بلدان فلسطين والشام . وفي

(١) زبدة الحلب لابن العديم ص ٢١١

(٢) الثاني من عيون التواريخ لابن شاکر الكتبي . الفاتيكان رقم ٧٣٥ ص ١٨٧

(٣) صلة الطبري ص ٦

(٤) فوات الوفیات لابن شاکر الكتبي ج ١ ص ٣٧

الصليب في الحرب

لم نجد في صحيح البخاري ذكراً للصليب إلا في حديث واحد ورد في باب كسر الصليب وقتل الخنزير وهذا لفظه :
 « حدثنا علي بن عبدالله . حدثنا سفيان . حدثنا الزهري قال :
 اخبرني سعيد بن المسيب سمع ابا هريرة رضي الله عنه عن رسول
 الله صلعم قال : « لا تقوم الساعة حتى ينزل فيكم ابن مريم حكماً
 مقسطاً فيكسر الصليب . ويقتل الخنزير . ويضع الجزية . ويفيض
 المال حتى لا يقبله احد »

وفي سنن ابي داود « باب في الصليب في الثوب » جاء فيه
 حديث عمران بن حطان عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله
 صلعم كان لا يترك في بيته شيئاً فيه تصليب إلا قضبه^١
 وفي لسان العرب « ثوب مصلب فيه نقش كالصليب » . وفي
 حديث عائشة ان النبي صلعم كان اذا رأى الصليب في ثوب قضبه
 اي قطع موضع الصليب منه . وفي الحديث نهى عن الصلاة في
 الثوب المصلب . وهو الذي فيه نقش امثال الصلبان . وفي حديث
 عائشة ايضاً « فناولتها عطافاً فرأت فيه تصليبا فقالت نجّه عني »
 وفي حديث ام سلمة انها كانت تكره الثياب المصلبة . وفي حديث
 جرير : « رأيت على الحسن ثوباً مصلباً »

(١) صحيح البخاري ج ٢ ص ٤٩ طبعة المطبعة الحسينية سنة ١٣٢٨

(٢) سنن ابي داود ج ٢ ص ١٢٢

وكل هذا منقول عن «النهاية في غريب الحديث والاثار» لابن
الاثير (ج ١ ص ٧٣ المطبعة الخيرية)

وفي حديث عدي بن حاتم: «قدمت على النبي وفي عنقي صليب
من ذهب فقال لي «الق عنك هذا الوثن» يريد الصليب^١



(١) لسان العرب ج ١٧ ص ٣٣٤

الصليب في عرف الشعراء

هو عود في رأي جرير . قال الخالدي : ذكروا ان جريراً
دخل دير سمعان في يوم عيد . فرأى النساء والصبيان يقبلون
الصُّلب ويسجدون لها فقال :

رأيت بدير سمعان صليباً	تقبّله الشوادر والظباء
تعظّمه القسوس وتحتويه	فترشفه ويخنقها البكاء
فقلت مه لهم هل غير عود	تملكه اعوجاج واستواء ^١

ومثله للوليد بن يزيد في نصرانية من حسان النصارى اسمها

سَفْرَى احبّها

اضحى فؤادك يا وليد عميداً	صباً قديماً للحسان صيودا
من حب واضحة العوارض طفلة	برزت لنا نحو الكنيسة عيدا
ما زلت ارمقها بعيني وامق	حتى بصرت بها تقبل عودا
عود الصليب فويح نفسي من رأى	منكم صليباً مثله معبودا
فسألت ربي ان اكون مكانه	واكون في لهب الجحيم وقودا ^٢

ودعاه عبد الله بن الزبير « بعلاً » حيث قال يهجو بني عجل النصارى

تهددني عجل وما خلت اني خلاة لعجل والصليب لها بعل^٣

(١) مسالك الابصار للعمري ص ٣٥٢

(٢) الخامس من عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي رقم ٤٥ في الخزانة الظاهرية

بدمشق

(٣) الاغاني للاصبهاني ج ١٣ ص ٤٧ طبعة بولاق

وسماه الاعشى « وثناً » فقال :

تطوف العفاة بابوابه كطوف النصارى بيت الوثن
قال الازهري قال شمر فيما قرأت بخطه « اصل الاوثان عند
العرب كل تمثال من خشبة او ذهب او فضة او نحاس . وكانت
العرب تنصبها وتعبدها وكانت النصارى نصبت الصليب وهو
كالتمثال تعظمه وتعبده ولذلك سماه الاعشى وثناً »

وجعله الأقيشر وجريز ايضاً . و ابو نواس الها للنصارى . فقال الأقيشر
في فتية جعلوا الصليب المهيم حاشاي اني مسلم معذور^٢
وقال جريز يهجو الاخطل
لعن الاله من الصليب الهه واللابسين برانس الرهبان^٣
وقال ابو نواس :

اني هويت حبيباً لست اذكره الا تبادر ماء العين ينسكب^٤ . . .
مُزَّرٌ يتمشى نحو بيعته الهه الابن فيما قال والصلب^٤



(١) لسان العرب ج ١٧ ص ٣٣٤

(٢) تاج العروس ج ١٠ ص ٩

(٣) نقائض جريز والفرزدق ص ١٠٣

(٤) ديوان ابي نواس رواية الاصبهاني . باريس رقم ٤٨٣١ المجلد الثالث ص ٩٤

القسم والخلف بالصليب

كان نصارى العرب واهل الحيرة اكثر ما يقسمون في كلامهم بالصليب . او بالصليب والمعمودية . او بالصليب والقربان . قال البكري في الكلام على دير هند بنت النعمان احد ملوك الحيرة المناذرة . قال ابو الفرج :

« دخل الى هند بنت النعمان المغيرة بن شعبة (لما ولاء معاوية الكوفة) وقد عميت . فحادثها طويلاً . ثم خطبها . فضحكت وقالت شيخ اعور وعجوز عمياء . والصليب ما اردتني طلباً للنسل . ولا رغبة في مال . او شغفاً بجمال . ولكنك اردت ان تقول اني نكحت ابنة النعمان . انصرف راشداً . فانصرف وهو يقول :

ادركت ما منيت نفسي خالياً لله درك يا ابنة النعمان . . .
اني خلفك بالصليب مصدق والصلب اصدق حلفة الرهبان

وللحسن بن هاني يخاطب احد غلمان النصارى :

قد رضينا بسلام او كلام من قريب
فبروح القدس عيسى وبتعظيم الصليب
قف اذا جئت الينا ثم سلم يا حبيبي

ولما اراد ابن مرينا ان يصرف الاسود بن النعمان عن عدتي

(١) معجم ما استعجم للبكري . طبعة اربعة ص ٣٦٣ . والاغاني للاصبهاني

ج ٢ ص ٣٣

(٢) ديوان ابي نواس رواية الاصبهاني . باريس رقم ٤٨٣١ ص ٩٣

ابن زيد . قال له « غشك والصليب والمعمودية »^(١)
 ومن كلام الاخطل الشاعر التغلبي : « والصليب والقربان .
 لأتخلصن الى كليب خاصة دون مضر بما يلبسهم خزيه . ويشملهم
 عاره . ثم اعلم ان العالم بالشعر العربي لا يبالي وحق الصليب . اذا
 مرّ به البيت العائر السائر الجيد . أمسلم قاله ام نصراني^٢ »
 ومثله قول ابن لابن حنين بن بلوع المغني من اهل الحيرة
 « والصليب والقربان ما صنع هذا الصوت الا في منزلنا »
 ومن الغريب حلف الشاعر عدّي بن يزيد . وهو نصراني .
 برب مكة والصليب معاً في قوله :

سعى الاعداء لا يألون شراً عليك ورب مكة والصليب^٣
 واغرب من ذلك قسم بعض المسلمين بالصليب ولو على سبيل
 المجانسة والنكته . قال ابراهيم بن خالد المعيطي : « دخلت على المهدي
 وقد وُصف له غنائي . فسألني عن الغناء وعن علمي به . وقال لي :
 تغني النواقيس (وهو صوت سُمي كذلك لما كاته ضرب النواقيس)
 فقلت نعم والصليب يا امير المؤمنين . فصرفني^٤ »

وكان الخلفاء والملوك يوجبون القسم بالصليب ثلاثاً في كل يمين من
 الأيمان التي كانوا يقتضونها من النصراني والافرنج والارمن . ولما وقع
 الصلح مع تكفور صاحب سيس الارمني . مستهل ربيع الآخر سنة

(١) الاغاني ج ٢ ص ٢٣ طبعة بولاق

(٢) = ج ٧ ص ١٧٨

(٣) = ج ٣ ص ١٢٣

(٤) = ج ٢ ص ٢٤

(٥) الطبري ص ٥٤١ و ٥٤٢ T. S. I.

٦٨٤ (١٢٨٥ م) كانت نسخة الهدنة واليمين « اقول وانا ليفون هيتوم ابن كستنطين . والله والله والله وحق الصليب . وحق الصليب » ومثله حين تم الصلح سنة ٦٨٩ للهجرة (١٢٩٠ م) مع الريد اركون البرشنوني (Roi d'Argonne de Barcelone) واخيه صاحب صقلية فكانت نسخة اليمين : اقول وانا ذوفنس (Alphonse) والله والله والله . وحق المسيح وحق الصليب وحق الصليب وحق الصليب . » وكذلك حين استقر الصلح مع الافرنج سنة ٧٧١ (١٣٦٩ م) بعد وقعة الاسكندرية . فكانت اليمين :

والله والله والله . وحق الصليب (ثلاث مرات) وحق اللاهوت والناسوت وصليب الصلبوت

ولم يكن كتاب الانشاء الشريف يقفون عند هذا الحد من التحليف بالصليب . بل كانوا يكررون ذكره في نص اليمين غير مرة . ويقولون بلسان الملكانيين ويعنون بهم نصارى الروم والافرنج قاطبة : « متى خالفت هذه اليمين التي في عنقي او نقضتها . . . اكون . . . جحدت مذهب الملكانية . وانكرت وقوع الصلب على السيد يسوع . وايت عيد الصليب . . . وكسرت الصلبان . ودُست برجلي القربان . . . وكسرت صليب الصلبوت وطبخت به لحم الجمل . . . ومزقت غفارة ام الرب . وحدثت تحت صليبه . . . » ولا يخفى ما في مثل هذا القسم من السفه والسفالة وتعمد الالهانة

(١) تشریف الايام والعصور بسيرة الملك المنصور . باريس ١٧٠٤ ص ١٨٤

(٢) = = = = = = = = ص ٣٣٤

(٣) اجابة السائل الى معرفة الرسائل . باريس ٤٤٣٧ ص ١٠٢ - ١٠٤

التصليب او الارتسام

من شواهد التصليب قول الحسن بن هانئ في وصف الحجر :
يسقيها من بني العباد رشاً منتسب عيدته الى الاحد
اذا بنى الماء فوقها حبباً صلب فوق الجبين بالزبد
اي عمل صليباً من زبدها على جبينه^١

قال الفتح بن خاقان في مطمح الانفس في ترجمة ابي عمرو
يوسف بن هرون الكندي المعروف بالرمادي الشاعر المتوفى سنة
٤٠٣ للهجرة (١٠١٢ م) : « وكان كلفاً بفتى نصراني استسهل
لباس زناره . والخلوة معه في ناره . وخلع بروده . وتسوَّغ دين
مسيحه وجعله معبوده . وراح في بيعته . وغدا من شيعته . ولم
يشرب نصيبه . حتى خطأ عليه صليبه . فقال :

أدرها مثل ريقك ثم صلب كعادتكم على وجهي وراسي^٢

وروا ان الحسن بن عضد الدولة ابي الحسن اخي المتوكل على
الله ملك الأندلس ابن يوسف بن هود الجذامي « كان اذا طلعت
الشمس يستقبلها ويصلب على وجهه^٣ » وهو الذي دفن بسفح قاسيون
سنة ٦٩٧ للهجرة (١٢٩٧ م)

وقد استعمل المسلمون احياناً في موضع صلب «خط الصليب»

(١) ديوان ابي نواس . الفاتيكان ٤٥٦ ص ٩٥

(٢) عيون التواريخ للكتبي . ج ١٢ الخزانة التيمورية ص ٢٩٣-٢٩٥

(٣) فوات الوفيات للكتبي ج ١ ص ١٦٤

كما سبق من كلام الفتح بن خاقان . ومنه البيت المنحول لخالد
ابن يزيد بن معاوية وكان قد قال في امرأته رملة بنت الزبير بن
العوأم ابياتاً منها :

احبّ بني العوأم طراً لحبها ومن حبّها احببت اخوالها كلبا
ومعلوم ان بني كلب كانوا من نصارى العرب . فزاد بعضهم
بعد هذا البيت :

فان تُسلمي تُسلم وان تنصّري تحطّ رجال بين اعينهم صلبا
فلما سمع هذا البيت عبد الملك بن مروان الخليفة الاموي قال
له : تنصّرت يا خالد . قال وما ذاك . فانشده هذا البيت . فقال
له خالد : على من قاله ومن نحلنيه لعنة الله

وهذا اللفظ هو اصح وافصح من قول بعض النصارى المتأخرين
« رسم اشارة الصليب » في تعريب العبارة الفرنجية Faire le signe
de la Croix

ومن مرادفات التصليب الارتسام . وفي معاجم اللغة انه « التكبير
والتعوذ والدعاء » اي ان يقول الرجل : « الله اكبر . واعوذ بالله » .
وزعموا ان معنى ارتسم الرجل كبر ودعاء . واستشهدوا عليه بقول
القطامي وهو من شعراء النصارى . يصف سفينة شرعية تقاذفتها
الامواج حتى خشي الملاح فيها من الغرق
في ذي جُلولٍ يقضي الموت صاحبه
اذا الصراريُّ من احواله ارتسما

(١) الاغانى للاصبهاني ج ١٦ ص ٨٩

(٢) لسان العرب ج ١٥ ص ١٣٣ وتاج العروس ج ٨ ص ٣١٣

ومثله قول الاعشى :

وصهباء طاف نهاميها وبرزها وعليها ختم
وقابلها مستهاماً لها وصلّى على دنها وارتمم

وذهب ابو حنيفة ان معنى ارتسم هنا ختم اناها بالروسم اي بالطابع . وهو وهم ظاهر وتمحل بعيد . ينفيه قول البيت الاول « وعليها ختم » . وانما ارتسم في كلا الشاهدين بمعنى صلب اي رسم الصليب على نفسه . لان الصراري وهو الملاح في بيت القطامي . اذا عين هياج البحر وخاف من الفرق . يستغيث برسم الصليب لينقذه من الهلاك . وهو ما يفعله كل نصراني اذا فاجأه مكروه او خشي من قوع خطر . فالتعوذ والدعاء في تفسير ارباب المعاجم هما من قرائن الارتسام ولوازمه . لا من معانيه . والصلاة تبتدى دائماً بالتصليب ولذلك طابق الاعشى بين « صلى وارتمم » . فعنى الارتسام اذن في اللغة « رسم الصليب » لا غير كما نطقت به نصارى العرب . وهو التفسير الصحيح الذي لا يتوجه عليه اقل اعتراض كما يظهر للمتأمل . فليحرر



اشكال الصليب

اختلفت النصارى منذ القرون الاولى في كيفية الصليب .
 وذكر ابن النديم ان ماني المشهور بين اصحاب البدع . وضع رسالة
 في الصليب . وفي كتب الاقباط والنساطرة خصوصاً شروح ومجادلات
 في هذه الاختلافات . وهي منحصرة في بسط الاصبع الواحدة او
 الاثنتين او الثلاث او الخمس في رسم الصليب . وفي الاتجاه بها
 من اليمين الى اليسار . او من اليسار الى اليمين . وقد وهم بعض
 الكتّاب المسلمين في كلامهم على الصليب فزعم احدهم ان الفرنج
 يصلبون بال عشرة اي بكلتا اليدين معاً . ولكل من هذه الاشارات
 تخرجات واحتجاجات تفننوا فيها وأغربوا في استنباطها غاية الاغراب
 انتصاراً لمذاهبهم

الصليب باصبع واحدة

هو سنة اليعاقبة من سريان واقباط وحبش ونوبة . زعم انبا
 ميخائيل اسقف دمياط انهم « منذ تلمذوا لم يصلبوا الا باصبع
 واحدة . » قال :

« فاما الصليب باصبع واحدة فرجوعنا معشر القبط الى ما شهد به انجيل لوقا
 « فان كنت باصبع الله اخرج الشياطين فقد اقتربت منكم ملكوت السموات . »

(١) كتاب الفهرست طبعة مصر ص ٣٣٧

(٢) الاجوبة الفاخرة لشهاب الدين احمد بن ادريس القراني المالكي . باريس ١٤٥٦

ولم يقل باصبعي الله . وفي هذا كفاية . . . والاصبع الواحد اشارة مثلاً للتوحيد والتثليث . وهو احسن واقوى . وابتدانا من اليسار الى اليمين . اي ان اعتمادنا بالثاوث الموحد نقلنا من حزب اليسار الى حزب اليمين . وقد قال قوم ان هذا الصليب اشارة الى ان المسيح نزل من السماء الى الارض ونقل المؤمنين من حزب اليسار الى حزب اليمين . وسيدنا ومخلصنا عندما اكمل كل تدبيره افعال رأسه وهو على الصليب الى ناحية اليمين^١ . «

ولابي شاكر ابن الراهب من كتبة الاقباط مسئلة في رسم الصليب قال فيها :

« اختلف المؤمنون في الرسم به . فقوم منهم رسموا باصبع واحدة وابتدأوا من العلو الى السفل ومن الشمال الى اليمين وهم اليعقوبية . وغرضها في ذلك الايمان بمسيح واحد على الصليب . خلصهم بصليبه . ونقلهم من جهة الشمال التي هي الخطية الى ناحية اليمين التي هي المغفرة . ومحل النعمة حيث يكون سيدهم^٢ »

وفي « كتاب البرهان على صحيح الايمان » لاحد النساطرة . كلام على التصليب باصبع واحدة قال فيه :

« اعتمدت اليعقوبية في رسم الصليب باصبع واحدة اشارة الى ان الجوهر الالهي الذي من صفاته ان لا يدرك . ولا يحول . صار بالاتحاد بالجوهر الانساني جوهرًا واحدًا . وهذا اعتقاد ظاهر الفساد^٣ . «

وقد اشار بعض حجاج بيت المقدس قديماً في معرض كلامهم على يعاقبة القدس الى طريقتهم في التصليب . واخبروا انهم « انما يرتسمون باصبع واحدة ليعلم الناس انهم لا يعتقدون الا بطبيعة

(١) كتاب السنن التي انفردت بها القبط الارثوذكسين عن كافة المؤمنين والمهرطقة المخالفين . باريس رقم ١٥٨ ص ٢

(٢) كتاب البرهان في القوانين المكتملة . والفرائض المهملة . خزانه الفاتيكان رقم ١٠٤ ص ٤٣-٤٤

(٣) خزانه الفاتيكان رقم ١٨٠ ص ١٥٥-١٥٦

واحدة في المسيح^١» ونقل احد رهبان الفرنسيسكان الذي قضى في فلسطين عدة سنوات . رأياً في تفسير اختيار السبابة أوضح فيه رأي اليعاقبة حسبما رويناها آنفاً من كلامهم . وقال ان بالتصليب بالسبابة اشارة بعقدتها الثلاث الى اقانيم الثالوث . وهو تفسير لا لا يخلو من الفطنة . ولكنه نسب هذه العادة خطأً الى النساطرة بدلاً من اليعاقبة^٢

وفي كتاب النحلة للبطريك مكاروريوس الزعيم . شرح وجيز في رسم الصليب . ذكر فيه ان اول من ابتدع التصليب بالسبابة والانتقال بها من اليسار الى اليمين . كان بطريك انطاكية بطرس القصّار المشهور (في القرن الخامس للميلاد) قال :

« وتبع هذه الضلالة انسطاسيوس الملك المخالف والزم المسيحيين بان يعملوا هكذا وكثيرين من القديسين لم يوافقوه على ذلك^٣ »

وفي هذه الرواية وما خالفها من دعوى انبا ميخائيل اسقف دمياط ان الاقباط ومن شايهم في المعتقد . ما فتئوا منذ تنصروا يخطون الصليب بالسبابة . محلّ للنظر . لانه لم يثبت الى اليوم ان التصليب بشكله كان منذ انشاء النصرانية . ولا شك انه سبقه التصليب على الفم والجبين . وهو كاليوم كان يُصنع بالايهام . ولعل في قول خالد بن يزيد « تخطُّ رجال بين اعينهم صليباً » اشارة الى هذه العادة . وقد نبّه القديس غريغوريوس الكبير على ان الارتسام

(1) Voyage du Seigneur de Villamont (en 1589) Rouen 1618, p. 427.

(2) Fr. Eugène Roger. La Terre Sainte. Paris, 1664, p. 422.

(٣) كتاب النحلة المخطوط في خزانة كلية القديس يوسف في بيروت

كان بطريقتين . بالاصبع وباليد . فالتصليب بالاصبع الواحدة قديم
 اذن دون محالة . سبق زمان بطرس القصار
 وكان الموارنة قديماً يصلّبون بالسبابة . ولما بدأوا يقلّدون اللاتين
 في كثير من مصطلحات الطقس الغربي انتحلوا عاداتهم في الارتسام
 بالاصابع الخمس . ولا شك ان المرسلين حسّنوا لهم هذه الطريقة
 لما في الاصبع الواحدة من مظنة الدلالة على المشيئة الواحدة . ولعل
 هذا الانتحال كان في القرن السادس عشر . واقتدى بهم السريان
 الكاثوليك حين عدلوا عن مذهبهم اليعقوبي في القرن السابع عشر
 واختاروا الصليب اللاتيني الحديث بالخمسة . بدلاً من السبابة . لاشارتها
 الى الطبيعة الواحدة . وسيمر بنا شاهد بان المرسلين اللاتين ولاسيا
 الفرنسيين . كانوا ينكرون غاية الانكار كل تصليب للشرقيين
 بغير الكف

ومن الخوارج الذين افوا الصليب بالسبابة البيالقة (Pauliciens)
 قيل ان مردة لبنان كانوا منهم^٢ . وروى القس دانيل بن الخطاب
 السرياني المارديني ان الارمن

« كانوا يرسمون الصليب بالاصابع الثلاثة . . . ومع ذلك فانهم في جميع
 اسرارهم مثل القرايين والعماد ورسم المورون . لا يرسمونه الا بالاصبع الواحدة
 ومن الجانب الايسر الى اليمين . ما عدا وقت الصلاة فقط^٤ »

وهو قول يحتاج الى تحقيق

(1) St Grég. Dialog. L. I, C. XII, P. L. t. LXXVII, col. 212. — Dialog. L. II, C. III, P. L. t. LXVI, col. 135 (Dict. d'Arch. et de Lit. Chr., col. 3143)

(٢) طالع كتاب التعليم المسيحي على جاري عادات كنيسة رومية الذي يلزم

علمها وحفظها لكل المؤمنين بالمسيح . رومة ٧ نيسان ١٥٨٠

(3) F. Chalandon, *Essai sur le Règne d'Alexis 1er Commène*, p. 76-77

(٤) اصول الدين وشفاء قلوب المؤمنين . اكسفرد 579 Hunt.

وقد اضطرب كلام اليعاقبة خصوصاً من الاقباط والسريان في
كلامهم على تصليب الفرق الاخرى . فلا يخلو من خطأٍ وتخليط
كما سنبينه قريباً

التصليب باصبعين

من الغريب ان الاقباط والسريان والنساطرة . كانوا يهتمون
الروم البيزنطيين والملكيين بالتصليب باصبعين . ويحتجون عليهم
لاختيارهم هذه الطريقة . وعدّ احد الاقباط ايضاً النساطرة والافرنج
في جملة اشباع الاصبعين . جهلاً منه دون شك . قال انبا ميخائيل
اسقف دمياط :

« كنت قد تحدثت مع احد اصحابنا الملكية في الصليب باصبعين وسأته عن
السبب فيه فذكر ان رجوعهم في ذلك الى صورة سيدنا ومخلصنا يصبّ باصبعين
» وان قصدهم بالاصبعين الاشارة الى الطبيعتين وان المسيح بهما اله تام خالق .
» وانسان تام مخلوق . ذو طبيعتين وارادتين ومشيتتين . وان ابتداهم من اليمين
» الى اليسار ان بالصليب يطردوا الشيطان »

وقال ابن الراهب

« وقوم اخرين من المومنين رشعوا بالاصبعين وابتدوا ايضاً من العلو الى السفلى
» ثم من اليمين الى الشمال وهم الملكية والنسطورية . وغرضهم في ذلك الايمان
» بوجود اللاهوت والناسوت جميعاً على الصليب بغير افتراق . وان الخلاص كان
» بذلك بظهور الايمان من الجانب الايمن الذي هو الهداية . ودفع الكفر الى
» جانب الشمال الذي هو الضلالة . وقوم اخرين منهم رشعوا بالاصبعين وابتدوا
» من العلو الى السفلى . ثم من الشمال الى اليمين وهم الفرنج . فكانوا موافقين

(١) كتاب السبن التي انفرد بها القبط الارثوذكسيين . باريس رقم ١٥٩ ص ٧

« للروم والنسطور في الرسم بالاصبعين . وموافقين ايضاً لليعقوبية في الابتداء من الشمال الى اليمين^١ »

ولا يخفى ما في ذلك من الغلط والخبث
وقال صاحب « كتاب البرهان على صحيح الايمان » لاحد النساطرة:
« اعتماد الملكية على الرسم باصبعين اشارة الى بقاء الجوهرين بجالهما . بعد ان
« دخل عليهما الخلل (كذا) وتغير خاصيتهما . وهذا ايضاً مستحيل ان يبقى
« الجوهر بجاله على تغير خاصيته^٢ »

ولم يبلغ احد من خصوم الطبيعتين والاصبعين ما بلغه القس دانيال
ابن الخطاب السرياني في الخذلقة والتنطع في الجدل والانتقاد حيث قال:
« واما الذين يرسمون الصليب بالاصبعين فعليهم مأخذ عديدة . احدها منع
« الاتحاد رأساً . وهو ان الاصابع واحدة بالكيان مختلفة بالقنوم . والثاني ان
« الاصابع متساوية بالكيان . فالذي يرسم بالاصبعين يجعل اللاهوت مساوياً
« للناسوت . والخالق للمخلوق . والثالث انه يساوي اللاهوت الازلي والناسوت .
« لان طبع الاصابع واحد لا غيار فيه . والرابع انه ينسب الوحدة الى الكيان .
« والكثرة الى الاقانيم . لان كيان الاصابع واحد . واقانيمها كثيرة . والخامس انه
« يوجب دخول الآلام على اللاهوت . لان رسم الصليب هو عبارة عن آلام مولانا .
« فهذه الاغاليط الداخلة على الروم^٣ »

ولا نظن بعد هذا الاحتجاج المضحك ان رسماً آخر في النصرانية
حُمِلَ ما تحمله رسم الصليب على بساطته من شعبذة اهل الكلام
واستنباط اصحاب التأويل

وقد قلّد المسلمون الاقباط في نسبة التصليب باصبعين الى

(١) كتاب البرهان في القوانين المكلمة . الفاتيكان رقم ١٠٤ ص ٤٣-٤٤

(٢) نسخة الفاتيكان رقم ١٨٠ ص ١٥٥-١٥٦

(٣) اصول الدين . خزانة اكسفرود Hunt. 579

الروم . والحقيقة التي لا يخامرها اقل ريب . ان اتباع الكنيسة البيزنطية . ما فتئوا يرسمون الصليب الى اليوم بالاصابع الثلاث . اشارة الى سر الثالوث الاقدس . وانما دخل الوهم على اليعاقبة والنساطرة من عدم تمييزهم بين طريقة التصليب وطريقة « المباركة » في الطقس الملكي . وكل من له اقل المام بمصطلحات الكنيسة . لا يجهل ان « البركة » ترسم دائماً بوضع الابهام فوق البنصر والخنصر . بحيث تبقى السبابة والوسطى مبسوطتين وحدهما كما يرى هذا



صورة القديس غريغوريوس الكبير وهو يبارك

الشكل بعينه في كثير من المخطوطات والصور القديمة . ككتاب الانجيل مثلاً الموقوف على كنيسة يوستينة وقبريانس بدمشق . المحفوظ في خزانة باريس رقم ٢٤٢ Supl. Grec ص ٢ و ٣٧ و ٩٠ ونسخ عديدة غيره من المصاحف الدينية . وقد مثلنا في الصفحة السابقة صورة القديس غريغوريوس الكبير وهو يبارك على هذه الطريقة نقلاً عن الصورة التي صنعت في رومية اثناء حياته

ومما يشهد بغلط اليعاقبة ما نقلناه سابقاً من قول انبا ميخائيل القبطي « ان رجوع الملكية في ذلك الى صورة سيدنا ومخلصنا يصب باصبعين » وقد فات اسقف دمياط على جلالته رتبته . ان المسيح لا يصب ولكن يبارك

ويؤخذ من شهادة البطريرك مكاروريوس الزعيم الانطاكي انه قام في زمانه . اي في النصف الثاني من القرن السابع عشر . كاهن سربي في جبل اثوس . جعل يدعو الناس الى التصليب على شكل « المباركة » اي بوضع الابهام على البنصر والخنصر بدلاً من السبابة والوسطى وبترك هاتين الاصبعين مبسوطتين . وهو ما يوهم في بادئ النظر ان التصليب هو باصبعين كما ظن اليعاقبة قبلاً والنساطرة . ولكنه في الواقع تصليب بثلاث اصابع مضمومة قام فيه الاصبعان الاخيرتان مقام الأوليين

التصليب بثلاثة اصابع

هو الشكل القديم الذي عم الكنيستين الشرقية والغربية قبلاً .

(١) كتاب النحلة خزانة كلية القديس يوسف . بيروت رقم ١٤١١ ص ١٦٠

ولا تزال تحطه الى اليوم ايدي ما ينيف عن ١٥٠ مليوناً من اتباع الكنيسة البيزنطية . وهو اصدق الاشارات واتمها مطابقة لسرّ الثالوث الاقدس . وجرى عليه الأرمن ايضاً . ولذلك عابه عليهم القس دانيال بن الخطاب السرياني فقال بجذلقته المعهودة :

« هذا عين الغلط لان الذي باشر الصليب ليس الا احد الاقانيم المتحد بالجسد »
« فكيف يتصور دخول الصلب على الثالوث المقدس »

وقد شارك اليعقوبي في تخطيطه هذا التصليب والتشدد في انكاره . ووعظ الناس في الكنائس للعدول عنه واطراحه . راهبٌ مرسل من رهبان الفرنسيسكان في حلب سنة ١٦٤٣ وهذا نصٌ احدى عظاته في هذا المعنى . وقفنا عليها في خزانة الفاتيكان في مخطوط له دعاه « كتاب مواعظ شريفة والفاظ عالية منيفة » ولا نتالك من نقلها بتمامها بالحرف الواحد لخلاوتها ومرارتها معاً . قال بركا كته ورطانتته :

« العظة الرابعة تتضمن شرح ما ينبي عن اشارة الصليب المقدسة يعني . بسم الاب والابن والروح القدس الاله الواحد »

سؤال : لكن ان كان انتم تسألوني قائلين يا معلم لاي سبب بعض النصارى وقتا ما يصلبون عليهم يرون من اليمين الى اليسار قائلين باسم الاب والابن والروح القدس . وبعض اخرين بالمضادة يعدوا من اليسار الى اليمين
جواب : انا اقول لكم اولاً . ان اليسار هي عاجزة وغير كاملة في افعالها واشغالها لاجل ذلك هي تومي لنا خيرات زايلة وبغير كمال في هذا العالم . واما اليمين التي هي اقوى . والملكبة في افعالها واشغالها . تومي لنا ثبات وكمال الخيرات السماوية

ثانياً . اليسار تومي حال الخطاة والمغضوبين عليهم في نار جهنم . ولاجل هذا

(١) اصول الدين . خزانة اكسفورد Hunt. 579 دون رقم

المسيح بعينه بفهم مار متى قال انه يقيمهم كالجدا . عن يساره . واما اليمين تومي حال المنقوذين والمختارين الى لذات الجنة الذين حينئذ يقيمهم مثل الخراف عن يمينه ثم اقول لكم . ان لما الكهنة يعمدون الاولاد يرسمونهم باشارة الصليب المقدس حينئذ يعبرون من يسار المسيح الى يمينه . ولما يقعون في الخطية المميتة ولاسيا في الانشقاق من الكنيسة الكاثوليكية . ومعصية وكيل المسيح . وفي الهرطيقيات يرون كلهم جديداً من اليمين الى اليسار المذكور اعلاه . فاخيراً اجيبكم قائلاً ان قوماً من النصارى لما يصلبون عليهم ينقلون من اليمين الى اليسار حتى نعرف انهم لاجل خطاياهم المفعولة ينطلقون من يمين الامور الدائمة الى يسار الامور الفانية . ومن نعمة ومحبة الله الى غضبه . ومن بركته الى لعنته . واما الناس الكاثوليكين الصالحين وبني الطاعة اذ يصلبون على وجوههم بالمقابلة فينطلقون من اليسار الى اليمين لكي يظهر انهم بصلب وآلام المسيح . وفعالهم الصالحات يُعدون من يسار الامور الفانية الى الدائمة . ومن الخطيئة الى النعمة . ومن اللعنة الى البركة . ومن الموت المؤبد الى الحياة الابدية

فاسمعوا مني يا اولادي المختارين . واتركون المخالفين والهرطقة . وان كان تتعمدون من الكاثوليكية وتعتقدون بايمانهم المقدس فاتبعوهم ايضاً واتحدون معهم في كل شيء . لاسيا في اشارة صليبهم . وفي افعالهم الصالحة . لانكم هكذا في يوم الدين تقفون عن يمين المسيح^١ «

كذا كان بعض غلاة المرسلين الافرنج يخاطبون الروم في كنائسهم وفي عُقر ديارهم . ويعظون بينهم بمثل هذه « العظة الشريفة والفاظها العالية المنيفة » دون ان يروا اقل حرج في اخراجهم من « محبة الله وبركته الى غضبه ولعنته » من اجل اشارة واحدة بالكف . يُقصد بها مجرد التعبد والتبرك . سواء ألتجهدت من اليمين الى اليسار ام اليسار الى اليمين . وهي ليست من اركان الدين في

(١) كتاب مواعظ شريفة . والفاظ عالية منيفة . تأليف الحقير في الرهبان فرثيسكوس الكاهن يومئذ بمدينة حلب . الفاتيكان رقم ٥١٢ . ص ٢٢ و ٢٦

شيء . ومن هذا المثل يتبين للقارئ النزيه عن كل هوى . كم كان بعض المرسلين يجهلون تاريخ الشرق والكنائس التي بُعثوا اليها فضلاً عن آداب الوعظ والاقناع . بل انهم كانوا يجهلون ايضاً حقيقة ماضي تاريخ كنيستهم اللاتينية نفسها في القرون السالفة . ولو تعلم هذا الراهب قبل مصيره الى الشرق . لعلم انه بقضائه على الكنيسة البيزنطية . لا يثارها اليمين على اليسار . قد قضى ايضاً على الكنيسة اللاتينية في عصورها السابقة . واقصاها كما يقول « من رحمة الله وبركته الى نقمته ولعنته » لانها كانت تصلب قبلاً بالاصابع الثلاث وتنتقل بها من اليمين الى اليسار . كما صرح بذلك البابا اينشنسوس الثالث نفسه في كلامه على سر المذبح الاقدس . وهذا لفظه بجره باللاتينية كما جاء في خزانة الآباء اللاتين لجامعها مين

QUOMODO SIGNUM CRUCIS SIT EXPRIMENDUM

Est autem signum Crucis tribus digitis exprimendum, quia sub invocatione Trinitatis imprimitur, de qua dicit Propheta : *Quis appendit tribus digitis molem terræ ?* (Isaie, XL, 12) ita quod a superiori descendat in inferius, et a dextra transeat ad sinistram, quia Christus de cælo descendit in terram, et a Judæis transivit ad gentes. Quidam tamen signum Crucis a sinistra producant in dextram, quia de miseria transire debemus ad gloriam, sicut et Christus transivit de morte ad vitam, et de inferno ad paradysum, præsertim ut seipsos et alios uno eodemque pariter modo consignent. Constat autem quod cum super alios signum Crucis imprimimus, ipsos a sinistris consignamus in dextram. Verum si diligenter attendas, etiam super alios signum Crucis a dextra producamus in sinistram, quia non consignamus eos quasi vertentes dorsum, sed quasi faciem præsentantes¹.

وهذا تعريب الفصل بتمامه :

(1) Innocent III, *De sacro Altaris mysterio*, livre II, chap. XLV, (*Patrol. Lat.* t. 217, col. 825).

« يجب ان يُرسم الصليب بثلاث اصابع لانه يُشار به الى سر الثالوث الذي اوماً اليه النبي بقوله (اشعيا : الاصحاح الاربعون من التوراة طبعة مجمع نشر الايمان سنة ١٦٧١) « من علق بثلاث اصابع جرم الارض » وهذا الرسم يكون بالابتداء من العلو الى السفلى . ثم بالاتجاه من اليمين الى اليسار . لان المسيح نزل من السماء الى الارض ثم انتقل من اليهود الى الوثنيين . وبعضهم يرتسمون بالاشارة الى اليسار ثم الى اليمين . لاننا ننتقل من اكدار هذه الدنيا الى المجد كما انتقل المسيح من الموت الى الحياة . ومن الجحيم الى النعيم . وعلى هذا الوجه يكون الصليب واحداً على انفسنا وعلى غيرنا . لانه لا يخفى اننا اذا رسمنا الصليب على غيرنا نذهب به من اليسار الى اليمين . ولكننا اذا تأملنا . يتضح لنا اننا في الواقع نتجه من اليمين الى اليسار . لاننا اذا صلّبنا على من امامنا نشير اليه وجهاً ازاء وجهه وليس من خلفنا »

ولا يخفى قدر هذه الشهادة الكبرى من قلم رأس الكنيسة لاثبات صحة طريقة الصليب البيزنطي . وانها كانت الى القرن الثالث عشر شائعة في الكنيسة اللاتينية نفسها قبل ان تعمّ فيها طريقة الارتسام بالكف . والانتقال بها من اليسار الى اليمين . وهذه حقيقة تاريخية لا يزال يجهلها غير واحد من المرسلين في الشرق

ومما يؤيد ايضاً شهادة البابا . وان كانت غنية عن كل تأييد . ما رواه انبا ميخايل القبطي من اساقفة القرن الحادي عشر « ان الفرنج يصلبون بثلاثة اصابع الابهام والسبابة والوسطى . يقصدون الثالوث »

(١) يقول هذا لانه في الكنائس الجامعة الرومانية القديمة كان الكاهن يقدم

وهو مواجه للشعب

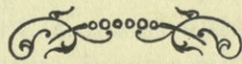
(٢) كتاب السنن التي انفردت بها القبط الارثوذكسيين . باريس رقم ١٥٨ ص ٢

التصليب بالاصابع الخمس

شاع في الكنيسة اللاتينية كما تقدم بعد القرن الثالث عشر .
واختاره الموارنة والسرمان الكاثوليك من الشرقيين تقليداً للفرنجة
منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد وهم ابن الراهب
القبطي بدعواه ان الفرنج يرتسمون بالاصبعين حسبما سبق لنا ايراده
من لفظه . واغرب من ذلك حكاية بعض كتبة الاسلام عنهم انهم
يصلبون بالخمسة والعشرة . ولا ندري ما الذي رأوه من اشارات
الصلبيين حتى نسبوا لهم استعمال اليدين معاً في التصليب . وفي
بعض مخطوطات الاقباط الماع الى هذا الاصطلاح . اضرب فيه
كلامهم فلم نرَ فائدة من نقله هنا

ويؤخذ من شهادة النساطرة انفسهم انهم كانوا يصلبون بالكف
اي بالاصابع الخمس . وهو قول صاحب كتاب البرهان بعد انتقاده
طريقة التصليب بالاصبع والاصبعين :

« وبقي اصحابنا المشاركة في التصليب باليد كاملة على الرسم القديم لما يوجبه
الشرع الذي لم يتوجه فيه تغير . ولا دخل عليه عرض عارض »



(١) المنقذ من الضلالة للشيخ محمد بن عبد القادر الشهير بابن الصلف المحلي المالكي .

باريس ٥٠٤٩ ص ١٢١

(٢) البرهان على صحيح الايمان نسخة الفاتيكان ١٨٠ ص ١٥٦

قول المسامحين ان الصليب احق بالاطراح والمقت

لارباب الجدل في الاسلام . آراء شتى في الصليب خرج فيها
كثيرون منهم من المناظرة الى المهاترة . وهم الذين عناهم عبدالله
ابن اسمعيل الهاشمي بقوله في رسالته المشهورة حين وصف مناظرتهم
« كمنافرة الرعاع والجهال والسقّاط والعوامّ والسفهاء من اهل
ديانتنا الذين لا اصل لهم ينتهون اليه . ولا عقل فيهم يعولون عليه .
ولا دين ولا اخلاق تحجبهم عن سوء الادب . وان كلامهم العنت
والمكابرة والمغالبة بسطان الدولة بغير علم ولا حجة »

فلا حاجة اذن ان نتعرض لذكر اقاويلهم لما في حكايتها من
الخطأ والإملاط . ولكننا نجتزئ برواية الغريب منها . وهو ما وجدناه
في مخطوطين في خزانتي باريس والفاثيكان . ننقله على سبيل النكتة
والمحاضرة لعلاقته بما تقدم

قال شهاب الدين احمد بن ادريس القراني المالكي المتوفى سنة
٦٨٤ للهجرة (١٢٨٥ م) :

« ان النصرى عظموا الصليب غاية التعظيم حتى صوروه في كنائسهم . وطبعوه
على اجسامهم واتوا بهم وقربانهم . ولو امكنهم ان لا يُخلوا منه مكاناً الا جعلوه
فيه . فعلوا . ومنهم من يصب على وجهه بالاصبع الواحدة وهم القبط . وباصبعين
وهم الروم . وبال عشرة وهم الفرنج . وهو شيء لم يجدوه في كتاب من الكتب
ولا في شريعة من الشرائع . بل ابتدعوه بارائهم الفاسدة وعقولهم السقيمة بل
العاقل يهان غلامه أيسر الاهانة فيود او نسيت تلك الاهانة . وعفيت اثارها

(١) رسالة عبد الله بن اسمعيل الهاشمي الى عبد المسيح بن اسحق الكندي . طبعة

تعظيماً لقدره . وقدر غلامه . فكيف باهانة ربه على زعمه . تلك الالهانات العظيمة المتنوعة . فلو كانوا عقلاء . محوا آثارها . واهملوا شعارها فان تحيّل لهم بعقلهم الفاسد ان الصليب ينبغي ان يُعظّم لكون الرب صعد منه الى السماء فهو فاسد . وان قاله كثير منهم . لانه عندهم دفن بعد الصلب بثلاثة ايام . وصعد من القبر الى السماء . فالتقبور اذن اولى بالتعظيم

وان كان لا بد من هذا الباب ففي الاناجيل ان المسيح عليه السلام ركب الحمار عند دخوله المدينة وبين يديه الصبيان ينادون « مبارك الآتي باسم الرب » فركب الحمار في حال تعظيمه . والصليب في حال اهانتة . فينبغي لهم ان يعظموا الحمار ويضمخوها بالعير . ولا يركبوها صيانةً لمركب المعبود عن ملابسة العبيد . وهي افضل من الصليب . لانها حيوان وهو جماد . وأين آثار السعادة من آثار الالهانة والانكسار ؟

وقال محمد بن عبد القادر الشهير بابن الصلف المحلي المالكي . ونقل

اكثر ما سبق :

« فضيحة اخرى للنصارى . عيد يعرف بعيد الصليب لا اصل له البتة . وانما احدثوه بعد رفع المسيح . كعيد ميكائيل وعيد النور وغيره فنقول لهم اخبرونا بما استحق الصليب عندهم هذا التعظيم حتى صرتم تقبلونه وتصلّبون على وجوهكم . فمنكم من يصلب على وجهه باصبع واحدة . وهم القبط . ومنهم باصبعين وهم الروم . ومنهم بالخمسة والعشرة وهم الفرنج . فهذا دين نقلتموه عن الانبياء واخذتموه من شرائع الرسل . فأرونا ذلك في توراة موسى . ونبوات شعيا وارميا ومزامير داود عليهم السلام . وقد كان الصليب لو كنتم تعقلون حقيقةً بالملت والبعض . فان قلتم شرف بصعود المسيح عليه . قلنا فلم لا تعظمون الحمار وتقبلونها وتسجدون لها . لان لوقا وغيره اخبر ان المسيح عليه السلام ركب حماراً عند دخوله المدينة والصبيان بين يديه ينادون « مبارك الآتي باسم الرب » . فكان ركوبه في حال تعظيمه . اولى بالتعظيم من ركوبه الصليب في حال تصغيره واهانتة »

(١) الاجوبة الفاخرة باريس ١٤٥٦ ص ٣٢ والفاثيكان رقم ٢٤٣ السؤال ٥٢ وفي

نسخة باريس ان المؤلف هو احمد بن درويش . وفي كشف الظنون احمد بن ادريس

(٢) المنقذ من الضلالة . الشاهد لمحمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالرسالة .

حسن رأي بعض المسامحين في الصليب

ونبر كرمهم ونعظيمهم اباه

يُستفاد من رسالة عبدالله بن اسمعيل الهاشمي وجواب عبد المسيح بن اسحق الكندي عليها ان بعض المسلمين كانوا يستعيذون احياناً بالصليب . اما لحسن اعتقادهم في قدرة المسيح كلمة الله الذي هو ممثل له . واما على سبيل التجربة والامتحان للنعمة الحالية فيه الصادرة عنه في مذهب النصارى . وكان الهاشمي قد كتب للكندي في رسالته المذكورة :

« دع ما انت عليه من الكفر والضلال والشقاوة والبلاء . وقولك بذلك التخليط الذي تعرفه ولا تنكره . وهو قولكم بالاب والابن والروح القدس . وعبادة الصليب التي تضر ولا تنفع . فاني اربأ بك عنه واجلّ فيه علمك وشرف حسبك عن خساسته »

فاجابه الكندي بما يتحصل منه ان الهاشمي كان قد جرب قوة الصليب واستغاث به يوماً حين وقع من الدابة . وهرب من بعض اعدائه . ولقي مرة الاسد في طريقه . ففاز بمعاونته بالنجاة والسلامة . كما اقرّ بذلك بقمه في مجلس حضره الكندي وجرى فيه الكلام والحجاج في هذا الشأن . وهذا لفظ الكندي نزوييه بتمامه لخطره وجلالة شهادته ودلالته على آراء القوم في ذلك العهد قال :

« واما قولك « عبادة الصليب التي تضر ولا تنفع » لما رأيت

من تعظيمنا اياه . وتقبيلا لنا له . وتبركنا به . فنجيبك عنه قائلين
انا نفعل ذلك للذي مُثِّل لنا فيه من امر المسيح وما جرى به
تدييره في خلاصنا . واستنقاذنا من الهلكة باحتماله الصليب عنا
والموت لاجلنا . فان النعمة عندنا في ذلك مما لا يبلغه منا وصف .
ولا يفي به شكر . والصليب ممثِّل هذه النعمة نصب اعيننا .
يحثنا على شكر مولينا والمنعم بها . واليه نقصد بالتعظيم والتبجيل
لا الى الخشب وغيره مما نصنع منه الصلبان . ولو كنا نعظم الخشب
كما توهمت لما اتخذنا الصليب من غيره . ولكننا نتخذه من الخشب
والذهب والفضة والحجارة والجواهر وغيرها . ونخطه خطأ . ونرسمه
بأيماننا . وذلك دليل على اننا لا نقصد بالتعظيم الجواهر التي تتخذ
منها الصلبان بل من هو مُمَثِّل بالصليب

« لِمَ اصلحك الله غلب عليك النسيان في هذا الموضوع . وحررتك
العصبية الهاشمية فأزاعتك عن سبيل الحق . وحادت بك الى خلاف
ذلك السبب الذي انت اقررت به بفمك . ولفظ به لسانك . مما
جربت من القوة الحائلة في الصليب حين استعدت به عند سقوطك
عن الدابة . وحين هربت ممن هربت منه . وحين لقيت الذي
لقيت في طريقك وانت ماض الى عمر الأكيراح . وحين لاقاك
الاسد وقت قارب سبابط المدائن . افترأك اصلحك الله نسيت
هذه المواقف . فان كنت نسيتها . فنحن ذاكرون لها . فلم اصلحك
الله تكفر بالنعمة . وتكافئ بالشر . وتقل من الشكر . وتنكر

(١) في الاصل المطبوع « عمر الكرح » والصواب ما اثبتناه وهو دير معروف في

المعروف . وليس هذا مذهب من هو مثلك من اهل التجرّج^١ والتمسك بالصدق . ولم قلت ان عبادة الصليب تضر ولا تنفع . فليت شعري أيّ ضررٍ نالك عند تعوذك بالصليب . وانت تعلم انا معشر النصارى لا نعبد الصليب . وانما نعبد القوة الحاله في الصليب . والتأييد الذي أيدنا به . والخلاص الذي أوتيناه بسببه . ألم يجر بيننا من الكلام والمحاجة بحضرة من جرى ما قد اقنعك . وتعلم كيف كان الحكم عليك في ذلك المجلس . فلم رجعت عما كان صحّ عندك . واقررت بصوابه . حتى ذكرت انك امتحنت ذلك فوجدته صحيحاً^٢ »

ولا بأس ان ننبه هنا الى أن هذه المناظرة بين الهاشمي والكندي هي حقيقة . شهد بصحتها الامام البيروني في كتابه الآثار الباقية وليست موضوعة ككثير من المناظرات المخطوطة والمطبوعة . فالاستناد اليها والاستدلال بها حجة لا تدافع وبرهان لا يمانع

واشهر من كان يميل الى النصارى في عهد العباسيين . ويساعد على اظهار الصليب في الاعلام . واتخاذ في الكنائس . زبيدة بنت جعفر امرأة هرون الرشيد وام الامين . قيل « كانت تكرم طيموثاوس (جاثليق النساطرة) كثيراً وتميل الى النصارى وتستخدمهم . واخرجت توقيع الرشيد باعادة المتهم من دير مار فثيون وتوسيعه . وعملت اعلام الشعانين وصلباناً من ذهب وفضة . وعاونت سرجيس

(١) في الاصل المطبوع التخرج بالخاء وهو تصحيف

(٢) رسالة الهاشمي الى الكندي . طبعة لندرة ص ٢٠٧-٢١١

مطران البصرة على بناء البيع فيها . وعضدت جبريل الطيب في خطابه في ذلك^١ »

وممن جارى النصارى في تعظيم الصليب . والتكفير له احياناً . ايهاً ما لحسن رأيهم فيه وقبولهم اياه . بعض المترددين من المسلمين على الديارات . طلباً للنزهة وشرب الصهباء . ولاسيما بعض خلعاء الشعراء . كالشاعر الكندي المنبجي حين مرّ بدير مار ماعوث فقال :
ولقد سلكت مع النصارى كل ما سلكوه غير القول بالثالوث
بتناول القربان والتكفير للصليبان والتمسيح بالطيبوث^٢
ومثله قول عبدالله بن العباس بن الفضل بن الربيع :

اقت بالدير حتى صار لي وطناً من اجله ولبست المسح والصلبا
وصار شماسه لي صاحباً واخاً وصار قسيسه لي والداً و أباً^٣
وكان بعض اسامة النصارى لا يدعون تكريم الصليب والتبرك به في الخلوة في منازلهم . ومنهم آل سليمان بن وهب الذين اشتهروا بالوزارة في الخلافة العباسية . قيل ان احدهم وهو الحسين بن القاسم بن عبدالله « كان يتقرب الى النصارى الكتاب بان يقول لهم « ان اهلي منكم واجدادي من كباركم » . وان صليباً سقط من يد عبدالله بن سليمان جده في ايام المعتضد . فلما رآه الناس .

(١) اخبار بطاركة كرسي الشرق ص ٧٣ طبعة رومة

(٢) معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٧٠١ طبعة اوربة . والطيبوث لفظة سريانية معناها في الاصل النعمة . ولكن يراد بها ههنا « الخيل » وهو الدهن السائل من بعض الايقونات . كما افادني ذلك غبطة مار اغناطيوس افرام برصوم بطريرك السريان بمجموع المعروف بسعة الاطلاع

(٣) كتاب الديرات للشابشتي . برلين ص ٢٥

قال هذا شيء، تتبرك به عجائزنا فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم»
ولما كانت تقع الهدن بين الروم وبين المسلمين . كان ملك
الروم يُنفذ الى من جاوره من ولاية المسلمين صليبا من الذهب .
وفاءً بالعهد . قال ابن العديم : « في سنة اثنتين وعشرين واربعمئة
(١٠٣٠ م) طلب نصر بن مرداس (صاحب حلب) الهدنة من ملك
الروم . فاطلق الملك مقلد بن كامل بن مرداس رسول نصر واعطاه
صليبا من ذهب مرصعا . اماناً لنصر . ووفاءً بالشرط^١ »

وذكر يحيى بن سعيد الانطاكي في اخبار سنة ٣٨٩ للهجرة
(٩٩٩ م) ان والي شيزر من قبل الحاكم بامر الله . وهو ابن كراديس
« التمس الأمان من ملك الروم . واشترط عليه انه لا يطاء له بساطاً
عند خروجه من البلد . ولا يعترضه ولا لاحد من اصحابه ممن
يختار المسير معه . فاجابه الى ذلك . وانفذ اليه صليبه^٢ »
وممن اختار « الركوب تحت الصليب » على الرضى بالذل في
في ولايته خوفاً من العزل . وجيه الدولة بن حمدان التغلبي وهو
القائل :

من كان يرضى بذل في ولايته خوف الزوال فاني لست بالراضي
قالوا فتركب احياناً فقلت لهم تحت الصليب ولا في موقف القاضي^٣

(١) صلة الطبري لعريب ص ١٦٤

(٢) زبدة الحلب ص ٦٦

(٣) تاريخ الذيل ص ١٨٣

(٤) الرابع من معجم الادباء لياقوت الرومي ص ٢٠٢ . ونسب هذين البيتين في

الجزء الثاني ص ١٨٨ للامير ابي الحسن بن علي بن مقلد . وروى عجز البيت

الاول « من خوف عزل »

الصليب عنوان النصرانية وشعارها

رفع المسلمين الصليبان على المراكب مخدعة للفرنجة

لما اشتد حصار الفرنج لعكا سنة ٥٨٦ للهجرة (١١٩٠ م) وقل ما بها من الميرة والسلاح . امر السلطان صلاح الدين « بان يُوسق مراكب عظيم من بيروت استكثر فيه من السلاح والاقوات والمقاتلة . وأظهر عليه زيّ الفرنج وشعارهم . وأخذ قوم من اسارى الفرنج الذين في قبضة المسلمين فتركوا على ظاهر المراكب . وأنزل معهم في المراكب جماعة من المسلمين ممن يعرف لغة الفرنج . وترىوا بزىّ الفرنج . وحلقوا شعورهم . واخذوا معهم خنازير ورفعوا على قلع المراكب صليباً . واوهموا الفرنج انهم واصلون اليهم نجدة من بلادهم . واقبلوا داخلين الى مرسى عكا . مسلمين على الفرنج بلغتهم . مبشرين لهم بان وراءهم من المدد من تشتد به منتهم . وتعتز به نصرتهم . فلم يرتب المحاصرون بذلك . وافرخوا لهم عن المرسى . فدخلوا الى عكا . واصلوا الى المسلمين بها ما كان معهم من الميرة والسلاح والرجال . وامت هذه الخيلة . وكانت من الفرص التي لا ينبغي ان تعاودا »

وبعد ثلاث وثمانين سنة من تمام هذه الخدعة . أريد تجديدها في دولة المماليك فسارت شواني الثغور سنة ٦٦٩ للهجرة (١٢٦٧ م) تريد قبرس . وقد عمل ابن حسون رئيس الشواني في اعلامها الصليبان .

يريد بذلك ان تخفى اذا عبرت البحر على الفرنج حتى تطرقهم على غفلة . فكره الناس منه ذلك . فلما قاربت قبرس تقدم ابن حسون في الليل ليهجم المينا . فصدم الشونة المقدمة شعباً . فانكسرت وتبعثها بقية الشواني فتكسرت . وعلم بذلك متملك قبرس . فاسر كل من فيها واحاط بما معهم^(١) .



(١) الخطط للمقرئبي ج ٣ ص ٣١٥ - ٣١٦ طبعة سنة ١٣٢٤ .

نصب المسامحين الصليبان على الاسوار

واظهارها على الاعلام في الفتن ودعأؤهم للمسيح وملكوك الروم

من اغرب مظاهر الفتن والثورات في عهد العباسيين . رفع الصليبان احياناً والانتفاء لملوك الروم . ولعل اول من اظهرها على الرايات من قواد المسلمين . يعقوب بن الليث المشهور بالصفار سنة ٢٦٢ للهجرة (٨٧٥ م) : قال ابن شاكر الكتبي في اخبار السنة المذكورة :

« قدم يعقوب بن الليث في جحافل فدخل واسط قهراً . فانتدب له ابو احمد الموفق اخو الخليفة في جيش عظيم . فاقتتلوا الى رجب من هذه السنة . قتالاً عظيماً هائلاً . ثم كانت الغلبة على يعقوب واصحابه . فقتل منهم خلق كثيرون . وغنم منهم ابو احمد شيئاً كثيراً من الذهب والفضة والمسك والدواب . ويقال انهم وجدوا في جيش يعقوب هذا رايات عليها صليبان^٢ »

وفي سنة ٤١٦ للهجرة (١٠٢٥ م) ارسل المغاربة الذين في قلعة حلب يسألون الصلح من سالم بن مستفاد والي حلب من قبل صالح ابن مرداس « والتمسوا منه اشياء . فلم ير اجابتهم اليها . فلما كان آخر نهار ذلك اليوم . نصبوا الصليبان على سور القلعة . وصاحوا « باسيل يا منصور » (اي باسم ملك الروم) وخطوا الصليبان بعد

(١) تاريخ الطبري . طبعة اروبة ص ١٨٩٥ T. S. III

(٢) الثاني من عيون التواريخ . الفاتيكان ٧٣٥ ص ٤٩

إشهارها . وبقوا يصيحون ليلتهم تلك الى الغدلة . واعادوا نصب
الصلبان في صباح يومهم . ولعنوا الظاهر (الخليفة الفاطمي بمصر)
ودعوا لباسيل الملك . وبقيت الصلبان منصوبة على حالها الى يوم
الجمعة ثالث يوم أشهروها فيه . وضافوا اليها صليباً آخر كبيراً »
وذكر ابن العديم هذه الواقعة في اخبار سنة ٤١٥ و اضاف الى
ذلك انهم بعد ان نصبوا الصلبان ثلاثة ايام نقرروا الناقوس ايضاً
وسرت هذه العادة ايضاً الى بغداد مقر الخلافة العباسية . ففي
سنة ٤٢١ للهجرة (١٠٣٠ م) كان الخراب قد شمل بغداد . لضعف
الهيبة وتتابع المجاعة . فاجتمع الهاشميون في شوال بجامع المنصور .
ورفعوا المصاحف واستنفروا الناس . فاجتمع اليهم الفقهاء وخلق من
الإمامية الرافضة . وضجوا ان يُعفوا من الترك . فعمدت الترك . . .
ورفعوا صليباً على رمح . وترامى الفريقان بالنشاب والآجر ثم تحاجزوا »
وفي سنة ٤٨٢ للهجرة (١٠٨٩ م) « في جمادى الاولى كثرت
الفتن ببغداد بين اهل الكرخ وغيرها من المحال . وثار اهل الكرخ
وقصدوا شارع ابن ابي عوف ونهبوه . وفي جملة ما نهبوا دار
ابي الفضل بن خيرون المعدل . فقصد الديوان مستنقراً ومعه الناس .
ورفع العامة الصلبان وهجموا على الوزير في حجرته . واكثروا من
الكلام الشنيع^٤ . »

(١) تاريخ الذيل ليجي بن سعيد الانطاكي ص ٢٤٧

(٢) زبدة الحلب ص ٦١

(٣) الإعلام بتاريخ الإسلام لمحمد بن الجزري . خزانة الاسكندرية رقم ٢٠٧٢

ص ٣٨٥

(٤) العاشر من الكامل لابن الاثير ص ٦١

ونقل سبط ابن الجوزي هذا الخبر بمزيد بيان واهم شرح فقال:
«في صفر سنة ٤٨٢ (١٠٨٩ م) كانت فتنة عظيمة ببغداد بين
السنة والشيعه . . . فغلقت اسواق الكرخ . ورفع اهلها المصاحف
وقتل بينهم خلق كثير . . . ورفع العامة الصلبان على القصب
ونادوا « المستنصر يا منصور » (اي باسم الخليفة الفاطمي بمصر) ونادت
الطائفة الاخرى « المسيح يا منصور » وتفاقم امر الفتنة . وقتل من
الفريقين نحو من مائتين . وسب اهل الكرخ اصحاب رسول الله
وزوجاته (رضهم) . وتعدوا الى سب رسول الله (صلعم) . وكتب
الخليفة الى صدقة بن يزيد . بانفاذ جيش فبعث اليه بالعرب . واتفقوا
مع الشحنة . فنقضوا الدور . واحرقوا المحال . وحلقوا الشعور
ونهبوا اما كن المفسدين من الفريقين . فسكنت الفتنة »
ومن اغرب الخوارق ان يتفق فريقان متخالفان متناظران .
على انتحال شعار النصرانية في حالة الشغب والقتال . والنداء بالنصر
للمسيح . ورفع الصليب وهو شعار الكفر كما قال المقرئزي .
وهذه النزعة العجيبة في مثل حاضرة الخلافة العباسية جديرة باسترعا.
انتباه الناظر في تاريخ ماضي الاسلام
ويدخل في هذا الباب انحياز المسلمين الى خيمة الصليب .
ووقوفهم تحته في الحروب التي كانت بينهم وبين الروم . وانتحالهم
النصرانية طمعا في اهلهم واموالهم . ففي سنة ٣٢٢ للهجرة (٩٢٢ م)
« سار الدمستق فوقاس في خمسين الفاً من الروم . فنازل ملطية
وحصرها مدة طويلة . فهلك اهلها بالجوع . وضرب خيمتين على

احديهما صليب . وعلى الاخرى مصحف . وقال : من اراد النصرانية
انحاز الى خيمة الصليب ليرد عليه اهله وماله . ومن اراد الاسلام
انحاز الى الخيمة الاخرى . وله الامان على نفسه حتى يبلغ مأمنه .
فانحاز اكثر المسلمين الى الخيمة التي عليها الصليب طمعاً في اهلهم
واموالهم . وسير مع الباقين بطريقاً ليبلغهم مأمنهم . وفتحها بالامان
في مستهل جمادى الآخرة^(١) .

وفي سنة ٣٥٤ للهجرة (٩٦٥ م) فتح نقفور (Nicéphore Phocas)
طرسوس « ونصب رحمين جعل على احدهما مصحفاً وعلى الآخر
صليباً . ثم قال لهم من اختار بلد الاسلام فليقف تحت المصحف .
ومن اختار بلد النصرانية فليقف تحت الصليب . فخرج المسلمون .
فحزروا بمائة الف ما بين رجل وامرأة وصبي . وانحازوا الى انطاكية^(٢) »



(١) الاول من الأعلام الخطيرة لابن شداد الحلبي . الفاتيكان ٧٣٠ ص ٢١٢-٢١٣

(٢) زبدة الحلب لابن العديم ص ٣٧-٣٨

اجناس الصليب ومعادنه

تقدم من كلام يعقوب الكندي ان الصليب كان فيما عدا الخشب . يتخذ من الحجر والفضة والذهب والجوهر . ولا شك انه اتخذ ايضاً من النحاس المَكْنُت او المطلي بالفضة والذهب . ومن العاج والزجاج وسائر المعادن . وقد اشتهرت بيعة ابي هور بسرياقوس في مصر بكثرة ما كان فيها من القناديل الفضة والصلبان الذهب . ولما صادر الامير يَلْبُغَا الناصري قبل ان يُقتل سنة ٧٦٨ للهجرة (١٣٦٦ م) جميع النصارى والرهبان « استولى على كل ما في الديارات من الذخائر والآلات فحصل على شي . كثير جداً حتى يقال اجتمع عنده اثنا عشر الفاً منها صليب ذهب وزنه عشرة ارطال مصرية »

و كثيراً ما وصف الشعراء الصلبان في اعناق الجواري والغلمان . ومنه قول عبد الله بن العباس بن الفضل في جارية نصرانية علق بها . وكان لا يفارق البيع في الاعياد شغفاً بها

يتثنى بحسن جيد غزال وصليب مفضض آبنوس
كم لثمت الصليب في الجيد منها ككهلل مكلل بشموس^٢

ولعبد الله بن المعتز في وصف الراح

(١) مسالك الابصار للعمرى ص ٣٦٠

(٢) الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني . خزانة مصر الملكية رقم ١٠٢ ج ٢ ص ٢٠٣

(٣) الاغانى ج ١٧ ص ١٢٩

من كف ظي مُقرطقٍ غنجٍ يعذرني من عليه يعذلني
تلوح صلبانه بلبته كنور خيرية على غصن^١

وقد اشتهر الاخطل الشاعر التغلي بسلسلة الذهب التي كانت
دائماً في عنقه . وفيها صليب ذهب . ولذلك قيل له ذو الصليب^٢
واكثر ما كانت تصنع الصلبان التي كانت تحمل في الطواف
في الاعياد والجنائز . من الفضة . وترفع على الرماح . وقد اشار اليها
الحسن بن هاني بقوله من قصيدته المشهورة :

وبالصُّلب اللجين وقد تبدت وبالزناز في الخصر الدقيق^٣
ولم نقف في كل ما طالعناه على نص واحد . ورد فيه وصف
اشكال الصليب في الشرق . ولا نظن انها اختلفت كاختلافها في
الغرب



(١) ديوان ابن المعتز رواية الصولي باريس ٣٠٨٧ ص ١١٧

(٢) القاموس للفيروزبادي

(٣) مسالك الابصار للعمري ص ٣٣٧

الصليب في الوشم والنقش

اعتاد العرب النصارى ان يسموا اجسامهم وابلهم بشكل الصليب . ومنه قولهم بعير مُصَلَّب ومصلوب . اي سَمْتُهُ الصليب . وقد عير جريرُ الاخطل بمثل هذه العادة فقال بلسانه البذيء :
 لقد ولد الأخيطلَ امُ سوءٍ على باب أستها صُلب وشامُ
 وقد بقي وشم الصليب في الجسم . ولا سيما في الذراع كياً بالنار . متبعاً دهرأ طويلاً عند الاقباط . حكى بعض حجاج بيت المقدس . انهم كانوا يكتوون بالنار في الصدغين واليدين على شكل الصليب . لاعتقادهم انهم يتطهرون به من الخطيئة الاصلية . استناداً الى قول القديس يوحنا المعمدان عن المسيح « هو يعمدكم بالروح القدس والنار . » (متى ٣ : ١١) وكانوا يكوون اطفالهم بعد المعمودية . ولاجل هذا الاعتقاد بالتطهر بالصليب من الخطيئة . كان بعض النصارى اذا تمكن من اجتذاب احد المسلمين وتنصيره . يكوي يده بالصليب . وممن فعل ذلك موسى بن سمعان الكركي كاتب امير سيف الدين قطلوبك الجاشنكير . قال النويري « استمال رجلاً من ضعفة العقول والقلوب من المسلمين . ونصره و كواه على يده مثال صليب . فحكّم قاضي القضاة جمال الدين المالكي بقتله . فقتل سنة ٧١٤ للهجرة (١٣١٤ م)^٢

(١) لسان العرب كلمة صليب

(2) Voyage du Seigneur de Villamont (en 1589) Rouen 1618, pp. 426-427

(٣) نهاية الايب . خزانه ليدن . Arab. 2 O Gaul. F^o 71^b

ومن النكت والنوادر . ان محمد بن بكتوت الظاهري الكاتب
المجود المعروف بالقرلندري . لانه لبس زيهم في حلب . كان يكوي
في رأسه الصليب حباً بامرأة في حماة . كانت تُعرف ببنت النصرانية .
قال الصفدي في ترجمته وهي حافلة بالفكاهة :

« كان يضع المحبرة في يده الشمال . والمجلد من الكشاف على
زنده ويكتب منه وهو يغني . ويكتب ما شاء الله ولا يغلط .
وكان قليل اللحن في ما يكتبه . واما انا فقد رأيتُه يكتب ويغني .
ولا يغلط . وكان قد اقام بحجة مدة عند الملك المؤيد ينسخ له .
فاحب امرأة تُعرف ببنت النصرانية . وكان كلما تحصل شي . ينفقه
عليها . واشتغل بها عن الكتابة . فشق هذا الحال على الملك المؤيد
فنفاها الى شيزر . فحكى لي انه كان يكتب في حماة الى المغرب .
ويجري من حماة الى شيزر ويبيت عندها . ويقوم من الاذان في
الصبح ويجري الى حماة . ويقعد ويكتب . فاقام على ذلك سنة .
وكانت قد تغتت يوماً . وقالت له « ان كنت تحبني فاكور في
رأسك صليباً . » ورأيتُ كي الصليب في يافوخه . توفي في طرابلس
في ١٥ ربيع الاول سنة ٧٣٥ » (١٣٣٤ م)

وكانت النصراني تخط الصليب تبركاً . على كثير مما تتخذه
من الآلة والآنية والبيوت والحوانيت والطواحين . وفي كتب
الفقهاء انه « يتعين ان لا يشتري المسلم الدقيق من طواحين اهل
الكتاب . ولا يطحن عندهم لوجوه احدها . . . السابع ما يفعله

(١) الاول من الوافي بالوفيات . باريس ٥٨٦٠ ص ٢٠٣-٢٠٤ .

بعضهم من الصليب على باب الطاحون وفي اركانها «
 واشهر الآنية التي كان يُرسم عليها الصليب بالطين . راووق
 الحجر . وقد تغنت به الشعراء في خمرياتها . ومنها قول المرحل وهو
 زين الدين عمر المعروف بابن وكييل بيت المال . المتوفى في القاهرة
 سنة ٧١٦ للهجرة (١٣١٦ م) وقد سمي الحجر ابنة المطران :

ودارت علينا الخمر حتى تملكتم عقول رجال مثلها ليس يُملك
 فلما رأيت القوم بالكأس صرّعوا وان ابنة المطران بالقوم تفتك
 أرقّت دم الراووق حلاً لانني رأيت صليباً فوقه فهو مُشرك^٢
 ولابن الوكيل ايضاً

ان الذي جعل الهموم عقارباً جعل المدام حقيقةً درياقها
 لم يُصلب الراووق الا عندما قطع الطريق على الهموم وعاقها^٣
 وللأمير سيف الدين المُشدّد في مليح نصراني

لاجله اصبح الراووق منعكفاً على الصليب وشد الكأس زناراً^٤
 ولا يزال الى اليوم نصارى الشام يرسمون الصلبان بالطين على
 اواني ماء الزهر وماء الورد

واما النقش والتصوير فقد كان صنّاع الزجاج من النصارى
 في دمشق وحلب وصور والعراق . يصورون بعض المشاهد الدينية .
 والصلبان في الاواني والكوؤوس . وقد اشار الى ذلك الحسن بن
 هاني في ابيات قالها في وصف الخمر والكأس وهي :

(١) المدخل لابن الحاج . المطبعة الوطنية بالاسكندرية ج ٢ ص ١٩٨

(٢) النهج السيد للمفضل بن ابي الفضائل ٤٥٢٥ باريس ص ٨٣

(٣) شفاء الغليل للخفاجي ص ٩٥

(٤) الثاني من الوافي بالوفيات للصفدي باريس ٢٠٦٢ ص ٨١

اقول لما تحاكيا شهباً ايّهما للتشابه الذهب
 هما سواء وفرق بينهما انهما جامد ومنسكب
 تأتيك طاساتها محفّرة صور فيها القسوس والصُلب
 يتلون انجيلهم وفوقهم سماء خمر نجومها الحَب

قال الاصبهاني راوي الديوان قوله «صور فيها القسوس والصليب»
 لانها آتية النصارى . اي صور في هذه الاقداح قسوس في ايديهم
 الانجيل فعلت (الخمير) هذه الصورة فغمرتها



(١) الجزء الثاني من ديوان ابي نواس . خزانة الفاتيكان رقم ٤٥٦ ص ٩٢-٩٣

الصليب في القراطيس في عهد الامويين

يراد بالقراطيس اوراق البردي (papyrus) التي كانت تُصنع في مصر . وترسل الى كل البلاد . ولاسيما بلاد الروم . حتى ايام عبد الملك بن مروان . وكان صناعتها بمصر من نصارى الروم والاقباط . يرسمون عليها في الطراز (filigrane) قبل صقلها . البسمة المسيحية . فكانت الخلفاء وجمهور القضاة والفقهاء . وكتاب الدواوين والعمال . في جميع المدن والاصقاع . يستعملون هذا البردي بشعاره النصراني . ولم ينتبه له الا عبد الملك اول الخلفاء المروانيين . وقد نقل البيهقي هذا الخبر باو في بيان واتم شرح . مروياً بلسان الكسائي بسماعه من هرون الرشيد . وهذا نص ما حكاه قال :

« دخلت على الرشيد ذات يوم وهو في ايوانه . وبين يديه مال كثير قد شق عنه البدر شقاً . وامر بتفريقه في خدم الخاصة . وبيده درهم تلوح كتابته . وهو يتأمله . وكان كثيراً ما يحدثني . فقال هل علمت من اول من سن هذه الكتابة في الذهب . قلت ياسيدي هذا عبد الملك بن مروان . قال فما كان السبب في ذلك . قلت لا علم لي . غير انه اول من احدث هذه الكتابة . فقال سأخبرك :

« كانت القراطيس للروم . وكان اكثر من بمصر نصرانياً على دين الملك ملك الروم . وكانت تطرز بالرومية . وكان طرازها « ابا وابنا وروحا قديشا » . فلم يزل كذلك صدر الاسلام كله يمضي

(١) لا يخفى ما في قوله « كانت تطرز بالرومية » من المناقضة للفظ البسمة السريانية . ولا شك ان نص البسمة بالرومية نُقل للرشيد بترجمته السريانية بقلم احمد النساطرة ببغداد

علي ما كان عليه الى ان ملك عبد الملك فتنبه عليه و كان فطناً .
 فبينما هو ذات يوم اذ مرّ به قرطاس . فنظر الى طرازه فأمر ان
 يترجم بالعربية . ففعل ذلك . فانكره . وقال ما اغلظ هذا في امر
 الدين والاسلام ان يكون طراز القراطيس وهي تحمل . وفي
 الاواني والسياب وهما يعملان بمصر . وغير ذلك مما يطرز من سُتُور
 وغيرها من عمل هذا البلد على سعته وكثرة ماله واهله . تخرج
 منه هذه القراطيس فتدور في الآفاق والبلاد وقد طُرزت بشرك
 وبنيت عليه . فامر بالكتاب الى عبد العزيز بن مروان وكان عامله
 بمصر . بابطال ذلك الطراز علي ما كان يُطرز به من ثوب وقرطاس
 وستر وغير ذلك . وان يأخذ صناع القراطيس بتطريزها بسورة
 التوحيد (وشهد الله انه لا اله الا هو) وهذا طراز القراطيس
 خاصة الى هذا الوقت . لم ينقص ولم يزد ولم يتغير . وكتب الى
 عمال الآفاق جميعاً بابطال ما في اعماهم من القراطيس المطرزة بطراز
 الروم . ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شيء منها . بالضرب
 الوجيع والحبس الطويل

« فلما انبثت القراطيس بالطراز المُحدث بالتوحيد . وحمل الى
 بلاد الروم منها . وانتشر خبرها . ووصل الى ملكهم فترجم له

(١) في الاصل المطبوع وهي « تحمل في الاواني » ولا يستقيم له معنى . فلاريب

ان الواو العاطفة سقطت من قلم بعض النساخ

(٢) في المتن المطبوع « هذه البلاد وعلى سعته وكثرة ماله »

(٣) في الاصل المطبوع وبنيت عليها والضمير راجع الى الشرك فهو خطأ ظاهر

اصلحناه . ولا تخلو المتون المطبوعة من تصحيف وتحريف لعدم تدبرها ونقدها

ذلك الطراز . انكره وغلظ عليه . فاستشاط غضباً وكتب الى عبد الملك « ان عمل القراطيس بمصر . وسائر ما يطرز هناك للروم لم يزل يُطرز بطراز الروم الى ان ابطلته . فان كان من تقدمك من الخلفاء قد اصابوا فقد اخطأت . وان كنت اصبت فقد اخطأوا . فاختر من هاتين الخلتين ايتها شئت واحببت . وقد بعثت لك بهدية . تشبه محلك واحببت ان تجعل رد ذلك الطراز الى ما كان عليه في جميع ما كان يُطرز من اصناف الأعلاق . حاجة اشكرك عليها . وتأمّر بقبض الهدية . » وكانت عظمة القدر

« فلما قرأ عبد الملك كتابه . رد الرسول . واعلمه ان لا جواب له . ولم يقبل الهدية فانصرف بها الى صاحبه . فلما وافاه اضعف الهدية . ورد الرسول الى عبد الملك . وقال « اني ظننتك استقلت الهدية فلم تقبلها . ولم تجبني عن كتابي . فاضعفت لك الهدية . وانا ارغب اليك في مثل ما رغبت فيه . من رد هذا الطراز الى ما كان عليه اولاً . » فقرأ عبد الملك الكتاب ولم يجبه . ورد الهدية . فكتب اليه ملك الروم يقتضي اجوبة كتبه . ويقول « انك قد استخففت بجوابي وهديتي ولم تسعفني بجاجتي . فتوهمتك استقلت الهدية فأضعفتها . فجريت على سبيلك الاول . وقد ضعفتها ثالثة . وانا احلف بالمسيح . لتأمرن برد الطراز الى ما كان عليه او لا أمرن بنقش الدنانير والدراهم . فانك تعلم انه لا يُنقش شيء منها الا ما ينقش في بلادي . - ولم تكن الدراهم والدنانير نُقشت في الاسلام - فيُنقش عليها من شتم نبيك ما اذا قرأته ارفض جبينك له عرقاً . فأجب ان تقبل هديتي . وترد الطراز الى ما كان عليه .

وتجعل ذلك هدية بررتني بها . وتبقى على الحال بيني وبينك »
« فلما قرأ عبد الملك الكتاب غلظ عليه وضافت به الارض .
وقال أحسبني اشأم مولود ولد في الاسلام . لاني جنيت على رسول
الله صلى الله عليه وسلم . من شتم هذا الكافر ما يبقى غابر الدهر .
ولا يمكن محوه من جميع مملكة العرب . اذ كانت المعاملات
تدور بين الناس بدنانير الروم ودراهمهم . وجمع اهل الاسلام واستشارهم
فلم يجد عند احد منهم رأياً يعمل به . فقال له روح بن زنباع .
انك لتعلم الرأي والمخرج من هذا الامر . ولكنك تتعمد تركه .
فقال ويحك من . قال : الباقر من اهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم .
قال صدقت . ولكنه أرتج علي الرأي فيه . فكتب الى عامله بالمدينة
ان أشخص الي محمد بن علي بن الحسين مكرماً . ومتمعه بمائتي الف
درهم لجهازه . وبثلاثمائة الف درهم لنفقته . وأزح علفه في جهازه
وجهاز من يخرج معه من اصحابه . واحتبس الرسول قبله الى
موافاته عليه . فلما وافى اخبره الخبر . فقال له الباقر لا يعظمن
هذا عليك . فانه ليس بشيء من جهتين . احدهما ان الله جل وعز
لم يكن ليطلق ما يهددك به صاحب الروم في رسول الله صلى الله
عليه وسلم . والاخرى وجود الخيلة فيه . قال وما هي . قال تدعو
في هذه الساعة بصناع يضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانير .
وتجعل النقش عليها سورة التوحيد وذكر رسول الله صلى الله عليه
وسلم . احدها في وجه الدرهم والدينار . والاخر في الوجه الثاني .
وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه
والهسنة التي ضرب فيها تلك الدراهم والدنانير . ففعل عبد الملك

ذلك ورد رسول ملك الروم اليه يعلمه بذلك ويقول « ان الله جلّ وعزّ مانعك مما قدّرت ان تفعله وقد تقدمت الى عمالي في اقطار الارض بكذا وكذا وبابطال السكك والطراز الرومية . » فقبل لملك الروم افعل ما كنت تهددت به ملك العرب . فقال انما اردت ان اغيظه بما كتبت به اليه لاني كنت قادراً عليه . والمال وغيره برسوم الروم . فاما الآن فلا افعل . لان ذلك لا يتعامل به اهل الاسلام . وامتنع من الذي قال^١ »

ومن اعلم النظر في هذه الرواية تتبين له آثار الصنعة والتزييق فيها . ولا يبعد ان يكون الكسائي نفسه ادخل فيها بعض الزخرفة . وبرزها في هذا القالب القصصي بعد ان تناولتها السنة السّمّار والندماء قبله . وتوسعوا فيها ما شاءت قرائتهم واهواؤهم . في التملق للعباسيين واهل البيت . والغضب من ملوك الروم ورجال الامويين . وقلّ ان يروي راوٍ في الاسلام خبراً للخلفاء مع القياصرة البيزنطيين دون ان يشوه وجه الحقيقة رغبةً في تحقير موقف « علوج الروم » وتذليلهم ازاء عزة الخلافة . ولا حاجة الى فطنة كبيرة لادراك ما في قصة تكرار الهدية ثلاثاً . من السخف والتلفيق . لاسقاط شأن ملك الروم وهو الذي كان عبد الملك بن مروان نفسه يدفع له الجزية قبلاً الف دينار في كل جمعة^٢ . وهي لم ترد قط في رواية اخرى . ولم يشر اليها البلاذري بحرف . فلا مراء انها منحولة مختلقة من اصلها . ومثلها ايضاً قول صاحب القسطنطينية لعبد الملك « ان

(١) المحاسن والمساوي لابراهيم بن محمد البيهقي مصر ١٩٠٦ الجزء الثاني ص ١٢٦-١٢٩

(٢) مجلد من مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي . خزانة اكسford Marsch. 289

كان من تقدمك من الخلفاء قد اصابوا فقد اخطأت . وان كنت قد
 أصبت فقد اخطأوا . « وهو نفس الانتقاد الذي وضعه مؤرخو الاسلام
 في القرن السادس للهجرة في فم ملك الروم . حين بلغه اغتصاب
 الوليد بن عبد الملك كنيسة دمشق الكبرى . وتحويلها الى جامع .
 قال سعيد بن العاص « لما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب له ملك
 الروم انك قد هدمت الكنيسة التي رأى ابوك تركها . فان كان
 حقاً فقد خالفت اباك . وان كان باطلاً فقد اخطأ ابوك » فهذا
 القول اذن هو من جملة الرقع المنسوجة في عهد العباسيين التي كان
 مؤرخوهم يرقعون بها كل ثوب لزخرفة اقاصيلهم
 ومن بينات الوضع في حكاية الكسائي . الدالة على رغبة القصاص
 في التقرب الى العباسيين والخطوة لديهم . دعواهم ان عبد الملك
 لم يجد في بطانته ورجال دولته في دمشق من يشير عليه برأي يرتضيه
 للخروج من هذا المأزق الحرج . فلم يرَ بداً من الالتجاء الى اكبر
 اعداء دولته وهو سبط الحسين . واستدعائه مع اصحابه بنفقات
 باهظة . للاستعانة بمشورته . في حين كان لديه في حاضرة الشام .
 احزم رجالات بني امية رأياً . واوسعهم علماً وخبرة . وازكنهم
 فراسة وهو خالد بن يزيد بن معاوية . فكيف يصح ان يعدل عنه
 وهو اعلق الناس به . ويؤثر عليه من اشتهر بيته بمنازعة الدولة
 والخروج عليها . وانما شاء ندماء العباسيين التحجب اليهم بالسكوت
 عن الاموي . وانزال العلوي . منزله من الفطنة وجودة الرأي .
 توصلاً الى وصف الدولة الاموية في الشام بقلة الكفاة في السياسة

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر طبعة بدران . جزء اول . ص ٢٠٢

والتدبير . وتمثيلها في اقبح صورة من العجز والتخلف والفاقة الى رجال العقل والمشورة . امثال اهل الحجاز من الهاشميين والطلبين الذين استأثروا بالعلم والحكمة والفتنة . ومما يثبت ذلك اشد الاثبات . ما زعموه من جواب خطاب ملك الروم في شأن الكنيسة . حسبما تقدم . قالوا : « فلم يدر الوليد ما يجيبه به . فكتب الى الكوفة والبصرة وسائر البلدان ان يجيبوه . فلم يجبه احد . وجلس عقلاء الرجال في حظيرة المسجد يفكرون في ذلك . فدخل عليهم الفرزدق . فقال : ما بال الناس اراهم مجتمعين حلقاً حلقاً . فقيل له السبب كيت وكيت . فقال انا اجيبه من كتاب الله . قال الله تعالى : « ففهمناها سليمان . وكلاً آتينا حكماً وعلماً . » فسُرِّي عنهم

ولا يخفى على البصير ما في هذه الحكاية من التسخيف للوليد وبطانته من الامويين . وارادة نسبة العي والغباوة لهم . حتى ضاقوا ذرعاً بالجواب علي كلمة لملك الروم . واحتاجوا الى النداء عليها في الآفاق والبلدان . لاستخراج ما عند رعيتهم من الرأي . الى ان قبض الله لهم الفرزدق . وارسله مُنقداً فقيهاً حافظاً للقرآن . وناهيك بفقته الفرزدق في القرآن . وبمثل هذه الاقاصيص والاسمار كان مؤرخو العباسيين يدونون التاريخ تعمداً للوضع من اقدار الامويين ووصم زمانهم ورجالهم بالغفلة . وقلة الفهم . التماساً لرضى الخلفاء الهاشميين وقد نقل البلاذري اهم ما في خبر القراطيس والنقود بلفظ اوجز . واسلوب اقرب الى التصديق . قال :

« كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من ارض مصر . ويأتي

العرب من قبل الروم الدنانير . فلما كان عبد الملك بن مروان اول من احدث الكتاب الذي يكتب في رؤوس الطوامير من « قل هو الله احد » وغيرها من ذكر الله . كتب اليه ملك الروم : انكم احدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه . فان تركتموه والا اتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه . قال : فكبر ذلك في صدر عبد الملك . وكره ان يدع سنة حسنة سنها . فارسل الى خالد بن يزيد بن معاوية . فقال له : يا ابا هاشم . احدى بنات طبق . واخبره الخبر . فقال أفرخ روعك يا امير المؤمنين . حرّم دنانيرهم فلا يتعامل بها . واضرب للناس سككاً ولا تعف هؤلاء الكفرة ممّا كرهوا في الطوامير . فقال عبد الملك : فرجتها عني . فرج الله عنك . وضرب الدنانير

قال عوانة بن الحكم : وكانت الاقباط تذكر المسيح في رؤوس الطوامير . وتنسبه الى الربوبية تعالى الله علواً كبيراً . وتجعل الصليب مكان « بسم الله الرحمن الرحيم » . فلذلك كره ملك الروم ما كره . واشتد عليه تغيير عبد الملك ما غيره

ومما يرجح هذه الرواية على رواية البيهقي . وجود بعض النقود اليوم . وعليها اسم خالد بن يزيد بالرومية . وهو ما يثبت تدخله في ضربها . بعد استشارة عبد الملك اياه . ويُستدل من رواية البيهقي ان طراز الصليب في مصر كان يكون ايضاً في الاواني والثياب والستور وغيرها . ولم نجد اشارة الى ذلك في موضع آخر من الاصول التي وقفنا عليها

الصليب في النقود

كانت النقود في صدر الاسلام . الى ايام الخليفة عبد الملك ابن مروان . نقوداً رومية . كما كانت حسابات ديوان الخراج تكتب بالرومية ايضاً في الشام . تحت إشراف آل سرجون بن منصور جد القديس يوحنا الدمشقي واشياهم من الملكيين . واول من غير هذه الدنانير النصرانية وجعلها اسلامية بضرها ونقشها . عبد الملك سنة ٧٦ للهجرة (٦٩٥ م) كما سبق من شهادة البلاذري والبيهقي . وكانت في كل هذه الحقبة تتداولها ايدي المسلمين وعليها رسم الصليب . ومنها الى اليوم في الخزائن الاروبية عدة قطع محفوظة من ايام هرقل . وعليها صورته وهو قائم بشاراته النصرانية . وعلى رأسه التاج يعلوه الصليب . وييده اليمنى صليب اكبر . وفي اليسرى كرة الارض يرتفع منها في الوسط صليب صغير . وفي احد الوجهين حرف **M** وهو سمة النقود . وفوقه الاحرف الاوائل من اسم المسيح . وفي الوجه الآخر اسم المدينة التي ضربت فيها والسنة . وقد شاهدنا منها في دار النقود في باريس عدة قطع من الدراهم والدنانير وعليها اسم دمشق . وتاريخ ١٧ و ١٨ للهجرة اي ٦٣٨ و ٦٣٩ للميلاد . واخرى ضربت في حمص وبعلبك وطبرية . والصليب في جميعها

وفي ايام المماليك في مصر قريباً من سنة ٧٩٠ للهجرة (١٣٨٨ م)

(1) Henri Lavoix. *Catalogue des Monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale*. Pièces Nos 1, 7, 8, 34, 35, Damas; N° 15. Emèse; Nos 22, 23 Baalbeck; N° 30 Tibériade.

دخلت النقود النصرانية من البندقية . مدينة القاهرة وعمت سائر البلاد والامصار الاسلامية وعليها الصليبان . قال المقرئزي بتاريخ شهر صفر سنة ٨١٠ (١٤٠٧ م)

« الذهب ثلاثة اصناف . وهي الذهب الهرجة . . . وهو الذهب الاسلامي الخالص من الغش . . . والصنف الثاني ذهب يقال له الافرنطي والافلوري والبندقي والدكاه (ducat) وهو يجلب من بلاد الافرنج . وعلى احد وجهيه صورة انسان في دائرة مكتوبة بقلمهم . وفي الوجه الآخر صورتان في دائرة مكتوبة . ولم يكن يُعرف هذا الصنف قديماً مما يتعامل به الناس . وانما حدث في القاهرة من حدود سنة تسعين وسبعمئة (١٣٨٨ م) . وكثر حتى صار نقداً رائجاً وبلغ الى مائتي درهم وثلاثين درهماً من الفلوس كل دينار منه . ووزن كل مائة دينار من هذا الذهب احد وثمانون مثقالاً وربع مثقال . غير ان الناس قصّوه حتى خف وزنه . واستقر ثمانية وسبعين وثلاثاً . . . والنوع الثالث الذهب الناصري وهو الذي ضربه الملك الناصر فرج^١ »

وكان يقال ايضاً لهذا الذهب البندقي . الذهب المشخص . للصور التي في وجهيه . ونص العيني في تاريخه في اخبار سنة ٨١٣ (١٤١٠ م) ان الافرنطي الذي عليه الصليبان « تحسن سعره جداً . وبلغ مائتي درهم من الفلوس الجدد . » ولذلك رأى المقرئزي انكاره لوجود شعار الكفر عليه . فقال بتاريخ صفر سنة ٨٢٩ (١٤٢٥ م)

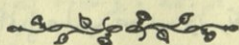
(١) السلوك لمعرفة الدول والملوك ج ٢ رقم ١٧٢٧ . باريس ص ٢٩٠

(٢) الثاني من عقد الجمان . رقم ١٥٤٤ باريس ص ٩٤

« جمع السلطان الامراء والقضاة وكثيراً من التجار . وتحدث في ابطال المعاملة بالذهب المشخص الذي يقال له الافرنقي . وهو من ضرب الافرنج وعليه شعار كفرهم الذي لا تجيزه الشريعة المحمدية . وهذا الافرنقي كما تقدم ذكره . قد غلب في زمننا من حدود سنة ثمان مائة (١٣٩٧/٨ م) على اكثر مدائن الدنيا من القاهرة ومصر وجميع ارض الشام . وعامة بلاد الحجاز واليمن حتى صار النقد الراجح . فصوب من حضر رأي السلطان في ابطاله . وان يُعاد سبكه بدار الضرب . ثم يضرب على السكة الاسلامية » .

وفي قول المقرئ ان الشريعة المحمدية لا تجيز التعامل بمثل هذا الذهب . وعليه شعار الكفر اي الصليبان . نظر لا يخفى على البصير . لان النقود التي كانت بين ايدي الانصار والصحابة والتابعين والخلفاء الراشدين والامويين . الى ايام عبد الملك . كانت كلها مضروبة بمثل هذا الشعار . كما سبق لنا اثباته . وقد فات المقرئ في حين وضع رسالته في النقود الاسلامية . و اشار الى الدنانير التي امر معاوية بضرها وعليها صورته قائماً . انه ضرب ايضاً فلوساً بمثل هذه الصورة . وعلى الوجه الآخر منها شكل الصليب وسط دائرة صغيرة . واقتدى به عبد الملك بن مروان . ومن كلا النقيدين قطع محفوظة اليوم في الخزائن الاروبية . وفي زعمه ان الصحابة لم ينكروا من نقود معاوية « سوى نقشها فان فيه صورة » . ولكنه اقر ان سعيد بن المسيب رحمه الله « كان يبيع بها ويشترى . ولا يعيب من امرها شيئاً . » فكيف ارتضى الذين وضعوا الشريعة المحمدية

بمثل الدنانير الهرقلية والفلوس الاموية مع وجود الصلبان فيها ولم يروا حرجاً في التعامل بها . ويجيء بعدهم قوم يستجيزون لانفسهم الحق بتحريم ما اقره السلف الاول . وما عسى المقرزي كان يقول لو قام في زمانه بعض الملوك والامراء . ووجدوا من الفطنة في السياسة . والرفق في التجارة . ان يضربوا سكتهم وعليها شعار الكفر . ليتداولها المسلمون والنصارى من مجاورتهم او معاملتهم كما فعل بعض ملوك التركمان في مغنيسية وافسس . وكانوا قد خالطوا اللاتين في الجزائر القريبة . وادركوا مقدار الربح من مبادلتهم اصناف التجارات . فراؤا من الحكمة والذكاء . تسهياً لهذه المقارضة . ان يضربوا نقوداً على مثال نقودهم . لرواجها وشيوعها . فاستدعوا بعض الصناع الايطاليين . وكلفوهم اتخاذ سكة اسلامية لهم وعليها صورهم . ونقشوا فيها الصلبان بامر منهم . وفي دواثرها كتابة لاتينية تعريبها « ضربت هذه السكة في مغنيسية بامر صاروخان او « ضربت في تولوغوس (افسس) بامر عمر بك امير آيدين »^١ ومثل هذه النقود التي عثر عليها في خرائب افسس . المكتشف المشهور وود Wood هي ولا جرم من نوادر السكة ونفائسها . لمكان صور الامراء المسلمين فيها منقوشة بشعار الكفر . وهي شاهدة بتدليس المؤرخين في ما شرحوه لنا من اخبار الاسلام

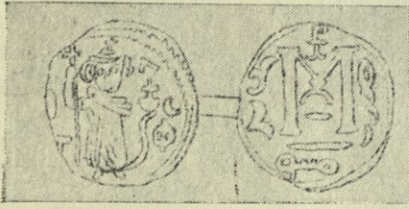


(1) G. Schlumberger. *Les Principautés Franques du Levant*. Paris 1877 pp. 121-123.

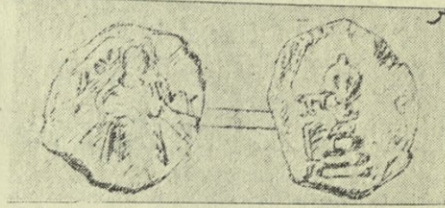
بعض صور النقود الاسلامية المصلبة



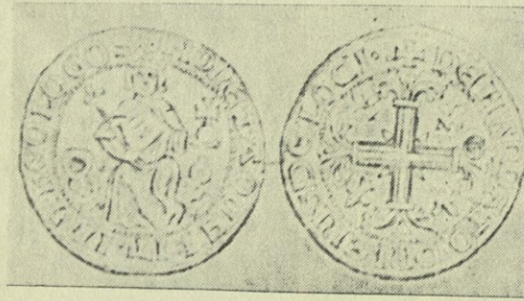
دينار عربي مصلب ضرب في طبرية وعليه
اسم خالد (بن يزيد) باليونانية



فلس عربي مصلب نقش عليه بالعربية
« ضرب دمشق جائز »



فلس عربي مصلب عليه صورة
« عبد الملك امير المؤمنين »



نقد تركاني مصلب ضرب في تولوغس
بامر عمر بك امير آيدين

الصليب بين العينين

يظهر ان بعض النساطرة كانوا قديماً يعلّقون الصلبان بين اعين الصبيان . على مثال التعويد والحرز . وهو ما ورد في ترجمة الربان هرمز . قال : « حُظر ان تُعلق التعاويد الحديد وما شاكلها على الناس . او على النساء . وقت ولادهن . وتُجعل الزينة بين اعين الصبيان صلباناً وما شاكلها . مثل الحنان^١ والحرز واشياء كثيرة تجري هذا الجرى^٢ »

ويؤخذ من شهادة ابن المقفع اسقف الاشمونيين بمصر . ان الخراسانيين الذين قاتلوا مروان الجعدي آخر الخلفاء الامويين . لما لحقوه في مصر « نادوا ان من كان نصرانياً يعلّق مثال الصليب من الذهب والفضة والنحاس على جبهته . وعلى ثوبه . وعلى باب بيته . ومن لم يعمل ذلك وقُتل . فلا ذنب علينا منه . وكان للخراسانيين ايضاً في حلوق خيلهم صلبان ذهب وفضة^٣ »

وفي رحلة بعض الحجاج الى البيت المقدس ان اليعاقبة فيه كانوا يكوون الصليب بالنار على جباههم ومواضع اخرى من اجسامهم . تحريضاً فيما يزعمون لخطيئتهم الاصلية^٤

(١) الحنان في السريانية بمعنى الرحمة . ومجازاً بمعنى البركة . وتطلق خصوصاً على

ما يؤخذ من تراب مدافن القديسين وبعض شطايا عظامهم بقصد التبرك بها

(٢) تاريخ جئالقة النساطرة . باريس ٦٦٥٣ ص ١٥٩ - ١٦٠

(٣) سير البيعة المقدسة . المطبعة الكاثوليكية ص ٢٠٤

(4) Bénard Parisien. Voyage de Hierusalem et autres lieux de la Terre Sainte. Paris 1621, p. 233.

الصليب في الرعناق

كانت نصارى العرب كثيراً ما تجعل الصليب في أعناقها عنوان
إيمانها . ولما قدم يوحنا بن روبة اسقف ايلة على محمد . كان متقلداً
صليباً من ذهب . وهو معقود الناصية . اخبر عبد الرحمن بن جابر
عن ابيه قال : ورأيت أكيذر (صاحب دومة الجندل) حين قدم به
خالد . وعليه صليب من ذهب وعليه الديباج ظاهراً
وقد تقدم ان الاخطل الشاعر المشهور كان يقال له ذو الصليب .
للازمته اياه في اكثر ايامه . وخصوصاً في وفادته على الخلفاء . وقيامه
في الحفلات التي كان ينشد فيها الشعر . وقد اشتهر هجاؤه للانصار
باشارة من يزيد بن معاوية . « حدث ابو عبيدة قال . قال رجل
لابي عمرو يا عجبا للاخطل . نصراني كافر . يهجو المسلمين . فقال
ابو عمرو يا لكع : لقد كان الاخطل ينجي وعليه جبة خز وحرز
خز . في عنقه سلسلة ذهب . فيها صليب ذهب . تنفض لحيته خمراً
حتى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير اذن »

وفي الاغاني ايضاً « قدم الاخطل الكوفة فاتي حوشب بن
رؤيم الشيباني . فقال اني تحملت حمالتين لاحقن بها دماء قومي .
فنهره . فاتي سيار بن البريعة فسأله . فاعتذر اليه . فاتي عكرمة
الفياض كاتباً لبشر بن مروان فسأله . واخبره بما ردد عليه الرجلان .

(١) كتاب وفادات العرب لابن سعد ص ٢٧ Edit. Welhausen. Skizze IV

(٢) الاغاني ج ٧ ص ١٧٣

فقال اما اني لا أنهرك . ولا اعتذر اليك . ولكني اعطيك احديهما
عيناً . والآخرى عَرَضاً . قال وحدث امر بالكوفة فاجتمع الناس
في المسجد . فقبل له ان اردت ان تكافئ عكرمة يوماً فاليوم .
فلبس جبة خزٍ وركب فرساً . وتقلد صليباً من ذهب . واتي باب
المسجد . ونزل عن فرسه . فلما رآه حوشب وسيار نفسا عليه ذلك .
وقال له عكرمة يا ابا مالك : فجاء فوقف وابتدأ ينشد قصيدته :
« لِمَنِ الديارُ بِجائلِ فوَعالِ »

وقل ان تغزل شاعر في الاسلام في غلام نصراني . دون ان
يدكر صليبه . ومنه قول مدرك بن علي الشيباني في عمرو بن يوحنا
من قصيدته المشهورة :

يا ليتني كنت له صليبا اكون منه ابدأ قريبا
أبصر حسناً واشم طيباً لا واشياً أخشى ولا رقيباً
ومثله قول ابي نواس :

قد اقام الصليب في الجيدِ الفأً فهو يختاره على كلِ إلفٍ
وللبغاء في دير الزعفران من ابيات :

وعاشرت من رهبانه كل ماجنٍ تجاوز لي عن صومه وصلاته
ولمادجا الليل استعار سنا الضحى براح نأت بالليل عن ظلماته
الى ان تهادى بين نحري ونحره صليب يوضع المسك من نفحاته
وخوفني منه فخلت صليبه لشدة ما يخشاه بعض وشاته

- (١) الاغاني ج ٧ ص ١٨٧
(٢) اسواق الاشواق لابي الحسن ابراهيم البقاعي . باريس ٣٠٦٥ ص ١٥١
(٣) ديوانه رواية الاصبهاني . باريس ٤٨٣٠ ص ٢٥٢
(٤) عيون التواريخ للكتبي ج ١٢ ص ٢٠٣ . الخزانة التيمورية

وكانت الفتيات والجواري . يُزِينُ دائماً نحو رهن بصلبان الذهب حتى في قصور الخلافة . قيل « دخل المهدي يوماً بعض دوره . فاذا جارية له نصرانية واذا جيبها واسع . وقد انكشف عما بين ثدييها . واذا صليب من ذهب معلق في ذلك الموضع . فاستحسنه فمدّ يده اليه فجذبه . فاخذه . فولوت على الصليب فقال المهدي في ذلك : يوم نازعتها الصليب فقالت وريح نفسي اما تخلي الصليباً » وكان للخلفاء رغبة شديدة في الوصائف الروميات . وهنّ احرص النساء على تقلد الصلبان . وعُرف المأمون بالاستكثار منهنّ . قال الاصبهاني :

« حدّث احمد بن صدقة قال دخلت على المأمون في يوم السعانيين . وبين يديه عشرون وصيفة جَلَبِي . روميات . مزنرات . قد ترينّ بالديباج الرومي . وعلقنّ في اعناقهنّ صلبان الذهب . وفي ايديهنّ الخوص والزيتون . فقال لي المأمون ويحك يا احمد . قد قلت في هؤلاء ابياتاً فغنني فيها . ثم انشدني :

ظباء	كالدنانير	ملاح في المقاصير
جلاهنّ	السعانيين	علينا في الزنابير
وقد زرفنّ	اصداغاً	كاذناب الزراير
واقبلنّ	باوساط	الزنابير

فحفظتها وغنيت فيها . فلم يزل يشرب وترقص الوصائف بين يديه . انواع الرقص . من الدسْتَبَنْد الى الأَيْلَا . حتى سكر . فامر لي بالف دينار . وامر بان يُنثر على الجواري ثلاثة الاف دينار .

فقبضت الالف . ونثرت الثلاثة الآلاف عليهن . فانتهبتها معهن^١ ولللخالدي في دير سعيد . يصف فتاة داعبها وسلبها صليبها يوم عيد :

سَعِدَتْ صَحْبَتِي بِدِيرِ سَعِيدٍ يَوْمَ عِيدٍ فِي حَسَنِهِ الْفِ عِيدِ
كَمْ فَتَاةٌ مِثْلَ الْمَهَاةِ سَلَبْنَا هَا صَلِيباً مِنْ بَيْنِ نَحْرِ وَجِيدٍ^٢
وفي كتب الادب والمصنفات الموضوعة في الديارات . اشارات شتى الي تردد اعيان المسلمين والشعراء الي الكنائس . لاجتلاء حسان النصارى . وفي اعناقهن الصليبان . ومن ذلك ما حكاه الاصبهاني عن عبدالله سبط الفضل بن الربيع وزير الامين قال :

«عَلِقَ جَارِيَةٌ نَصْرَانِيَةٌ قَدْ رَأَتْهَا فِي بَعْضِ اَعْيَادِ النِّصَارِيِّ . فَكَانَ لَا يَفَارِقُ الْبَيْعَ فِي اَعْيَادِهِمْ شَغْفًا بِهَا . فَخَرَجَ فِي عِيدِ مَارِ سَرْجِيسَ فظفر بها في بستان الى جانب البيعة . وقد كان قبل ذلك يرأسها ويعرفها حبه لها . فلا تقدر على مواصلته . ولا على لقائه الا على الطريق . فلما ظفر بها التوت عليه . وأبت بعض الاباء . ثم ظهرت له وجلست معه . واكلوا وشربوا . واقام معها ومع نسوة كن معها . اسبوعاً كاملاً . ثم انصرفت في يوم خميس . فقال عبدالله ابن العباس في ذلك وغنى فيه :

رب صهباء من شراب المجوس قهوة بابلية خندريس
قد تحليت بها بناي وعود قبل ضرب الشمس بالناقوس
وغزال مكحل ذي دلال ساحر الطرف سايري عروس

(١) الاغاني ج ١٩ ص ١٣٨ - ١٣٩

(٢) مسالك الامصار للعمري ج ١ ص ٢٩٠

قد خلونا بطيبه نحتليه يوم سبت الى صباح الخميس
بين ورد وبين آس جني وسط بستان دير ما سرجيس
يتثنى بحسن جيد غزال وصليب مفضض آبنوس
كم لثمت الصليب في الجيد منها كهلال مكلل بشموس^١

وبالاجمال . كانت النساء المسيحيات في الاسلام . البدويات منهن
والحضرىات . لا يدعن تعليق الصلبان في نحو رهن . ولذلك لما تروج
الفرزدق حدراء بنت زيق بن بسطام الشيباني النصرانية . واغضب
امراته النوار بمدحه اياها . بعثت النوار الى جرير فجاءها وشكت
اليه فقال من ابيات :

وما عدلت ذات الصليب ظعينة عيئة والرذفان منها وحاجب^٢
وكان الصليب فيما عدا الزنار والعمامة والغيار . من سمات
النصارى في الاسلام . منذ ايام المتوكل على الله . فهو في الارجح
اول من سن اضطهاد النصارى . حين غضب على طيبه بختيشوع .
وامر ان يهانوا في جميع البلدان ويؤخذوا بلباس الغيار . « وان
يُجعل في عنق كل واحد منهم اذا خرج من بيته صليب خشب
وزنه اربعة ارطال بالبغدادى . وجرى على النصارى في زمانه من
الصعوبات والاهانات ما لا يوصف^٣ »

ومن ملوك المسلمين الذين تنصروا . وعلقوا سمة النصرانية
في عنقهم . الملك السعيد ابن الملك العزيز عثمان الايوبي . وكانت

(١) الاغانى ج ١٧ ص ١٢٩

(٢) الاغانى ج ٨ ص ١٩١

(٣) اخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل ص ٧١

قد بقيت قلعة الصبيبة في يد نوابه . قال ابن شداد « ثم انه خرج من مصر فقبض عليه عسكر السلطان الملك الناصر . فحملوه اليه . فحبسه في قلعة البيرة . وبعث الى القلعة من تسلمها في شهر رمضان سنة تسع واربعين وستائة (١٢٥١ م) وبقيت في يده الى ان انقرضت دولته . واستولى التتر على البلاد في صفر سنة ثمان وخمسين وستائة (١٢٦٠ م) فاخرجوا الملك السعيد من البيرة . واحسنوا اليه . واعطوه بانياس . وبقيت في يده الى ان كسر الملك المظفر قطز التركي المعزبي صاحب مصر التتر في رمضان من السنة . وأخذ الملك السعيد اسيراً في من أخذ من الاسراء . فقتل صبراً . فانه كان على المسلمين اشد من التتر . وكان قد تنصّر في هوى زوجة هولاكوا وعلق في صدره صليباً وكتب عليه « حبس المسلمين طليق التتر »

واقترى الحاكم بامر الله الفاطمي باخليفة العباسي المتوكل في إكراه النصارى على تعليق الصليبان الثقيلة في رقابهم . ولم يكتف بالزامهم بها في المجتمعات والاسواق . بل اراد ان يتميزوا بها في الحمامات ايضاً . اذا تجردوا من ثيابهم . ليستدل عليهم بها . وامر « ان يتميز اليهود بجلجل مكان الصليب فلبثوا بذلك مدة

(١) ذكر غير واحد من المؤرخين ان زوجة هولاكوا كانت نصرانية . قال قطب الدين اليونيني في الذيل على مرآة الزمان في وفيات سنة ٦٦٤ (١٢٦٥/٦ م) ممن توفي فيها هولاكوا ... كان على قاعدة المغل في عدم تقييد بدنه او ميل اليه . وانما كانت زوجته طقز خاتون قد تنصرت . فكانت تعضد النصارى وتقيم شعارهم بتلك

البلاد التي استولى عليها . (خزانة اكسفردي . (Poc. 132, fol. 133^b)

(2) Cité par Clermont-Ganneau (Recueil d'Archéologie Orientale t. I Paris 1888, pp. 254-255)

ثم زال^١»

قال جمال الدين ابو صادق القُرشي في كتابه الموسوم بالزُبْد
المجموعة . في الحكايات والاشعار والابخار المسموعة « ومما ذكره
اهل التاريخ ان الحاكم الفاطمي امر اليهود والنصارى . إلا الخيابة .
بلبس العمام السود . وان يحمل النصارى في اعناقهم من الصلبان
ما يكون طوله ذراعاً ووزنه خمسة ارطال . وان تحمل اليهود في
اعناقهم قرامي الخشب على وزن صلبان النصارى وان
يكون في اعناق النصارى اذا دخلوا الحمام الصلبان . وفي اعناق
اليهود الجلاجل ليميزوا بها من المسلمين . وافرد حمامات اليهود
والنصارى من حمامات المسلمين . ونُهبوا عن الاجتماع مع المسلمين
في الحمامات . وخطأ على حمامات النصارى صور الصلبان . وعلى حمامات
اليهود صور القرامي . قال وذلك بعد الاربعائة^٢ » (١٠/١٠٠٩ م)

ونص سعيد بن يحيى على ان السنة كانت ٤٠٣ (١٠١٢ م)
وان الصلبان كانت اول ما امر بها الحاكم . طول فتر . ثم غيرها
عليهم بعد شهر وجعلها قدر شهر في شهر . . . « ولما كان يوم الاحد
النصف من شهر ربيع الاخر (٣ تشرين الثاني) من السنة . أمروا
ايضاً بتعظيم الصلبان التي في اعناقهم . وان يُجعل طولها ذراعاً ملكياً
في عرض مثله . وان يكون فتحها ثلثي شهر . وسمكها اصبعاً^٣ »
وحكى الذهبي ان الحاكم شرط على النصارى تعليق الصلبان

(١) ذيل تاريخ سعيد بن بطريق ليحيى بن سعيد الانطاكي ص ١٩٥

(٢) صبح الاعشى للقلقشندي ج ١٣ ص ٣٥٩ - ٣٦٠

(٣) ذيل تاريخ سعيد بن بطريق ليحيى بن سعيد الانطاكي ص ٢٠٢ - ٢٠٣

ظاهرة على صدورهم ٠٠٠ فعملوا صلبان الذهب والفضة . فانكر
الحاكم ذلك . وامر المحتسبين بالزامهم بتعليق صلبان الخشب وان
يكون قدر الواحد اربعة ارطال^١»

وجرى بعض سلاطين المماليك على سَنَن الحاكم الفاطمي . ففي
سنة ٧٥٤ للهجرة (١٣٤٤ م) « برز مرسوم السلطان بان اليهود
والنصارى لا يُستخدمون في ديوان السلطان بمصر والشام ٠٠٠ ولا
يدخل النصراني الحمام الا بصليب في عنقه^٢»



(١) مجلد من تاريخ الاسلام خزانة بريتش موزيوم Add. 48, fol. 24^b

(٢) الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين لابن دقاق . الخزنة التيمورية

الصليب تحت الاقدام

من الالهات التي كان المسلمون يتعمدون بها إذلال النصارى والاساءة اليهم . رسم الصليبان على الارض . وإرغام الضعفاء منهم على وطئها بارجلهم قبل اكرامهم على الاسلام . حكى نيكن من رؤساء دير مار سمعان العمودي في القرن الحادي عشر عن احد الرهبان : « انه في حال مضية الى اورشليم لقيه في الطريق مسلمون . فرسموا في الطريق صليباً والزموه بدوسه . واقاموا على ذلك ساعات كثيرة . ولما لم يقدروا به ان يدوس ما رسموه من رسم الصليب . تركوه ومضوا^١ »

ولابن جبير كلام على « الامير مسعود صاحب الدروب وقونية وبلاد العجم المجاورة للقسطنطينية » . قال فيه : وحسبك ان صاحب القسطنطينية لم يزل يوذي الجزية اليه ويصالحه على ما يجاوره من البلاد . فاسلم مع ابنة عمه على يده . وسيق له صليب ذهب قد أحمي عليه في النار . فوضعه تحت قدميه . وهي عندهم اعظم علامات الترك لدين النصرانية . والوفاء بدين الاسلام . وتزوج ابنة العم المذكورة . وبلغ هواه . واخذ جيوش المسلمين معه الى القسطنطينية فدخلها بهم وقتل من اهلها نحو الخمسين الفاً من الروم^٢ »

(١) كتاب التبيكن الصغير . خزانة دير مار يوحنا الصابغ في الشوير ص ٥٤٦

(٢) رحلة ابن جبير ص ٣٣٨

الصليب في الكنائس وفوق قبورها وابوابها

رُوي في المفضليات بيت الالعشى تقدم الاستشهاد به وهو قوله :

يطوف العفاة بابوابه كطوف النصارى ببيت الوثن
قالوا « اراد بالوثن الصليب وكانوا ينصبونه في وسط الكنائس »
ومن الابيات الاسلامية التي أُشير فيها الى نصب الصلبان في
البيع قول بشر بن ابي خازم :

لله درّ بني حذاء من نقر وكل جار على جيرانه كلب
اذا غدوا وعصي الطلح ارجلهم كما تنصب وسط البيعة الصلْب
ولابي نواس من ابيات في صفة الخمر :

اقامت حقة في قمر دن تفور وما يُحس لها لهيب
كأن هديرها في الدن يجي قراءة القس قابله الصليب
ومن نقائض افعال الحاكم بامر الله . وخطرات وساوسه . انه
كان قد امر في سنة ٤٠٢ (١٠١١ م) ان لا يظهر صليب . ولا
تقع عليه عين . فنزعت الصلبان من الكنائس . وطُمس آثارها من
ظاهر البيع والهياكل . ثم عاد في السنة التالية فأمر باظهار الصليب

(١) المفضليات طبعة ليال Lyall ص ٥٤٩

(٢) البيان والتبين للجاحظ . المطبعة العلمية ج ٢ ص ٧١

(٣) الثاني من ديوان ابي نواس الفاتيك كان ٤٥٦ ص ٩٥

الظهور الذي حكيناه في الفصول السابقة . في الاعناق والجمامات^١ وفي سنة ٤٩٦ للهجرة (١١٠٢/٣ م) كاد الصليب يرفع فوق منارة المسجد الجامع في حلب بامر الفرنج الصليبيين . ثم وُضع فوق الكنيسة العظمى المنسوبة للقديسة هيلانة ام قسطنطين . وهذا تفصيل الخبر كما ساقه ابن شداد . نقلاً عن يحيى بن ابي طي . قال في كلامه على قلعة حلب :

« وكان بهذه القلعة جرس كالتنور العظيم . معلق على برج من ابراجها التي من غربيها . وكانت الحراس تحركه ثلث دفعات في الليل . دفعة في اوله لانقطاع الرجل عن السعي . واخرى في وسطه للتبديل . واخرى في آخره للإعلام بالفجر . وعلق هذا الجرس على القلعة في سنة ست وتسعين واربع مائة (١١٠٢/٣ م) والسبب في تعليقه ما حكاه منتجب الدين يحيى بن ابي طي النجّار الحلبي في تاريخه . ان الفرنج لما ملكوا انطاكية في سنة احدى وتسعين واربعمائة (١٠٩٨ م) طمعوا في بلاد حلب . فخرجوا اليها وعاثوا في سورها . وملكوا معرة النعمان . وقتلوا من فيها . فخافهم الملك رضوان بن تاج الدولة تنش . لعجزه عن دفعهم عن البلاد ومنعهم . فاضطر الى مصالحتهم . فاقترحوا عليه اشياء كثيرة . من جملة ان يحمل اليهم في كل سنة قطعة من مال وخيل . وان يُعلّق بقلعة حلب هذا الجرس . ويضع صليباً على منارة المسجد الجامع . فاجابهم الى ذلك . فانكر عليه القاضي ابو الحسن بن يحيى الخشاب - وكان بيده زمام البلد - وُضع الصليب على منارة الجامع . وقبّح عليه

(١) ذيل يحيى بن سعيد الانطاكي ص ٢٠٣

ذلك . فراجع الافرنج في امر الصليب . الى ان اذنوا له في وضعه على الكنيسة العظمى التي بنتها هيلاني ام قسطنطين . فلم يزل عليها الى ان حاصرت الفرنج حلب في سنة ثمان عشرة وخمس مائة (١١٢٤ م) . ونبشوا ما حولها من القبور . فاخذ لهم القاضي ابن الحشاش المذكور اربع كنائس . وصيرها مساجد . من جعلتها الكنيسة العظمى ورمي بالصليب^١ .



(١) الاول من الاعلاق الخطيرة لابن شداد . الفاتيكان رقم ٧٣٠ ص ٣١-٣٢

الصليب في الاعلام والرايات

والطواف به في الاعباد والجنائز

اشرنا قبلاً الى اعتياد بعض الثوار والخارجين على السلطان . رفع الرايات والاعلام وعليها الصلبان اثناء القتال . وكان بنو تغلب لا يخرجون الى الحروب دون ان يقدموا في طليعتهم صليباً عظيماً . ومعه صورة مار سرجيس استنزالاً للظفر . وهو قول الاخطل :
لما رأونا والصليب طالعا ومار سرجيس وسماً ناقعا
وابصروا راياتنا لوامعا كالطير اذ تستورد الشرائعا
وفي اثناء الفتح حظر بعض القواد على النصارى اظهار الصليب في الباعوث . كالعهد الذي كتبه عياض بن غنم لاهل الرقة لما دخل مدينتهم وقال فيه :

« هذا ما اعطى عياض بن غنم اهل الرقة يوم دخلها . اعطاهم اماناً لانفسهم واموالهم . وكنائسهم لا تُحرب ولا تُسكن . اذا اعطوا الجزية التي عليهم ولم يحدثوا غيلة . وعلى ان لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة . ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً . شهد الله وكفى بالله شهيداً »

وهذا العهد هو الوحيد في كتاب الفتوح الذي ورد فيه ذكر الصليب . ويظهر من رواية البطريق ميخائيل السرياني ان

(١) ديوان الاخطل ص ٣٠٩

(٢) فتوح البلدان للبلاذري طبعة اروبة ص ١٧٣

عمرو بن سعد او عُمَيْر منع ان تظهر الصلبان حتى في الاعياد والطوافات. قال: «ففرح بذلك اليهود وجعلوا ينزعون الصلبان من الكنائس. فرأى نصراني صديق للامير يهودياً ير كض فوق سقف كنيسة القديس يوحنا المعمدان ليأخذ صليبا . فاشتدت غيرته واسرع الى الامير . وقال له ايها الامير العادل ليس من الانصاف ان تدع اليهود يهزأون بديننا . فغير الله قلب الامير . فاجاب اني لم آمر ان ترفع الصلبان غير التي تكون مرسومة في الطرقات على الحيطان . واوز الى من بحضرته ان يُدرك اليهودي وهو نازل وييده الصليب . فاستردّه منه وضربه على رأسه ضربة نثرت دماغه فمات . فسُرّ النصارى وخزي اليهود . وبطل الامر . وعاد النصارى يظهرن الصلبان في الطوافات والاعياد والجنائز . الا في حمص ودمشق فانهم استمروا على الامتناع منذ برز مرسوم الامير عمرو»
وحكى البطريرك نفسه ان الخليفة عبد الملك بن مروان امر ان تنزع الصلبان وتقتل الخنازير . ثم تنوسي هذا الامر بعد ذلك . وما ابطأ النصارى ان استردوا عادتهم في اظهار الصلبان . وكانوا يرفعونها على اعواد او رماح . اشار اليها الحسن بن هاني في قصيدة له في عبد يشوع بن مار سرجس فقال في جملة ما استحلّفه به :
وبالصلبان ترفعها رماح . تلاًّ حين تومض بالبريق
قال الاصبهاني في تفسيره : « قوله ترفعها رماح فذلك في يوم الفصح تبرز فيه الصلبان على الرماح »

(1) *Chronique de Michel le Syrien* . Edit. Chabot t. II p. 432.

(2) » » » » » t. II p. 475.

(٣) ديوان ابي نواس باريس رقم ٤٨٣١ المجلد الثالث ص ٨٤

ومن الابيات التي ورد فيها ذكر صلبان الفصح قول عبدالله
ابن الزبير يهجو حجار ابن أيجر العجلي من نصارى العرب :
«سليل النصارى سُدتَ عَجلاً ومن يَكُنْ
كذلك اهل ان يسود بني عجل
ولكنهم كانوا لثاماً فسدتهم
ومثلك من ساد اللثام بلا عقل
وكيف بعجل ان دنا الفصح واغتدت
عليك بنو عجل ومرجلكم يغلي
وعندك قسيس النصارى وُصلبهم
وغانيةٌ صهباء مثل جنى النحل» .
واكثر ما كان يُحتفل بالصليب في عيد الشعانين . وقد توسع
الشعراء والكتّاب في وصف هذا العيد . وسبقت ابيات المأمون
فيه . وقال الثرواني يصفه في دير الحريق بالحيرة :
خرجنا في شعانين النصارى وشيعنا صليب الجاثليق^١
وفي كتاب الديارات للشابشتي « ان المأمون اجتاز بالدير الاعلى
في خروجه الى دمشق . فاقام به اياماً . ووافق نزوله عيد الشعانين . .
وخرج رهبان الدير وقسّانه الى المذبح . وحوّهم فتيانهم بايديهم
المجامر . قد تقلّدوا الصلبان . وتوشّحوا بالمناديل المنقوشة . فرأى
المأمون ذلك فاستحسنه^٢ »

(١) الاغانى ج ١٣ ص ٤٦ - ٤٧

(٢) ممالك الابصار للعمرى ص ٣١٦

(٣) نسخة برلين ص ٧٦

وقال شهاب الدين العمري في كلامه على قبة السنيق من الابنية القديمة بالحيرة: «وعيد الشعانين بها نزه . يخرج فيه النصارى الى العقبة . في احسن زي . عليهم الصلبان وبايديهم الجامر . والقسوس والشمامسة على نعم واحد متفق في الاخان . الى ان يقضوا بغيتهم . ثم يعودون على هيئتهم»

وقال قبل ذلك في تعريف دير الاسكون من ديارات الحيرة : «اليه تجتمع النصارى في اعيادهم . . . فاذا كان يوم الشعانين اتوه من كل ناحية مع شمامستهم بصلبهم واعلامهم»

وظلت الصلبان تظهر هذا الظهور في عيد الشعانين . حتى نهى المتوكل على الله سنة ٢٣٥ (٨٤٩ م) ان يُستعان بالنصارى في الاعمال . وان يعلمهم مسلم . وان يُظهروا في شعانينهم صليبا . ومشى على اثره الحاكم بامر الله الفاطمي . فامر في صفر سنة ٤٠٢ (١٠١١ م) ألا يظهر صليب ولا تقع عليه عين . ولا يُضرب بناقوس^٤ وفي ايامه وقبلها « كان رسم النصارى في بيت المقدس جارياً في كل عام بحمل شجرة من شجر الزيتون في عيد الشعانين . من الكنيسة المعروفة بالعازرية الى كنيسة القيامة . وبينهما مسافة بعيدة . وان يُشق بها شوارع المدينة بالقراءة والصلوات حاملين الصليب مشهوراً . ويركب والي البلد في جميع مواكبه معهم ويذب عنهم»

(١) مسالك الابصار ص ٣٢٨

(٢) = = ص ٣١٢

(٣) الكامل لابن الاثير ج ٧ ص ١٧

(٤) ذيل يحيى بن سعيد الانطاكي ص ٢٠٣

(٥) = = = = = ص ١٩٤

وفيما عدا عيدَي الفصح والشعائين . كان النصراني الملكيون في مصر يحتفلون بليلة الحميم اي ليلة الغطاس . بايقاد النيران والطواف بالصلبان . قال يحيى بن سعيد الانطاكي في وصفها « يخرجون من الكنيسة القاثوليكي التي بقصر الشمع . المعروفة بكنيسة ميكايل في جمع متوافر . بالقراءة الملحنة وبالنغمات المعلنة . والصلبان المشهورة . والوقيد الطائل . الى النيل . بباعوث . ويصلون مُعلنًا كل طريقهم ويخطب الاسقف المراس عليهم على الشاطىء بالعربي . ويدعون للسلطان . ولمن شأؤوا من خواصه . ويرجعون الى بيعتهم على تلك الهيئة يتممون بها صلواتهم . وحضرهم الحاكم في كثير من الاعوام متنكرًا وشاهدهم . وكان لاهل مصر واهل الملل والمذاهب بمصر في هذا العيد من الطيبة والفرح . ما لا يكون لهم في غيره من ايام السنة واعيادها . فمنع الحاكم الكل في سنة اربعمائة (١٠٠٩م) من جميع ذلك . وألا يتعرض احد من سائر الناس كافةً الى فعل شيء من ذلك في تلك الليلة وذلك اليوم . وان يُعرض عنه . ويُصرف عن ذكره ويجري مجرى سائر الايام . ولا يُستعد له . ولا يُحفل به » وكان عيد الغطاس ايضاً يجري في سائر المشرق . في غالب الاوقات . بمزيد الفرح والاحتفال . وتُرفع فيه الصلبان وتقرع النواقيس . ومما يشهد بذلك ما رواه الامير بيبرس الدوادار المنصوري في اخبار سنة ٦٥٩ (١٢٦١ م) قال :

« ارسل هولاء كو الى عز الدين (كيكاوس) يستدعي شمس الدين يوتاش نائبه . فارسله اليه . فوصل الى أرزنكان صحبة رسله .

فاتفق عند وصولهم اليها عيد غطاس النصارى . فخرجوا متوجهين الى الفرات يجمع كبير . ومعهم الجاثليق واسمه مرحسياً . وقد رفعوا الصلبان على الرماح . واعلنوا النواقيس والصياح . فانكر عليهم شمس الدين يوتاش . وقصد منعهم . فقام عليه رسل هولاءكو . وقالوا هذه بلاد السلطان ركن الدين (قلعج ارسلان) فلا تتحدث الا في بلاد مخدومك عز الدين . وسألوا الجاثليق كيف كانت عادتكم في ايام السلطان غياث الدين . فقال لهم : كانت عادتنا نحمل ثلاثة آلاف درهم . ونعمل عيدنا كما نختار . فاخذوا منه ثلاثة آلاف درهم . ومكّنوه من عمل العيد كما اراد . فلما جرت هذه المفاوضة بين رسل هولاءكو وشمس دين الدين يوتاش . عاد مغضباً ورجع الى السلطان عز الدين وحسن له العصيان على هولاءكو . والخلاف على اخيه ركن الدين ' »

وكان الاحتفال بقيام الجاثليقة يجري احياناً مجرى الاعياد . ويخرج النساطرة لاستقباله بالجموع والصلبان . قال عمرو بن متى :

« في سنة اربع وخمسة (١١١٠ م) في خلافة المستظهر أسيم ايليا الثاني ويعرف ايضاً بابن المقلبي فطركاً بالمداين . . . ثم انحدروا الى دور قتيبي وخرج الكهنة والاسكولانيون من دير مار ماري السليح واستقبلوه بالصليب والانجيل والشموع والبخور والصلاة . ففرشوا الطريق قدامه مثل جاري العادة بالبسط والثياب »
ولسنا ندري هل كانت جدران المنازل في مثل هذه الاعياد تُفرش ايضاً بالشقق الحرير وعليها رسم الصليب . ام ان هذه العادة عادة افرنجية . كما يؤخذ من كلام رضي الدين الحنبلي في ترجمة ابي

(١) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة . بريتيش موزيوم Add. 23325 fo 52a

(٢) كتاب المجدل لعمرو بن متى ص ١٠٣

السعود بن احمد بن محمد النحريري الاصل الحلبي الشافعي . قال :

« ولي نيابة الحكم بعزاز ثم بحلب . ولم يكن الثناء عليه جميلاً . ثم عُزل فتملك قاعة البيسرية التي كانت ملاصقة للمدرسة الخلاوية . وشرع في عمارتها قاسارية (قيسرية) اي خاناً ليسكن بها المسلمون . فحسن في نظره الفاسدان يجعلها خاناً للفرنيج وقنصلهم . لداع لهم حملهم على ذلك . هو ان يكونوا في قفا الخلاوية التي كانت قديماً كنيسة النصارى . انشأتها هيلاني ام قسطنطين . فقووه بال اضافه الى ماله . لبلوغ قبيح آماله . وجعلها على اسلوب ارادوه الى ان سكنوها مع قنصلهم . وزُيّنت مرة حلب . فزيّنوا باب هذه العبارة . خربها الله تعالى . وعلقوا على بابها اقمشة فيها صورة الصليب . وفي هذا الزمان سكن بعض الفرنج في بعض محلات حلب . ولم يكونوا ليسكنوا من قبل الا في بعض الخانات . ولا قوة الا بالله العظيم »

و كانت الصلبان تُحمل ايضاً في الجنائز . ولا سيما في وفيات كبار النصارى . و كتّاب الدواوين من النساطرة . ويحضرها رجال الدولة . وشهدتها في مصر مرة الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله لما مات وزيره بهرام الارمني سنة ٥٣٥ للهجرة (١١٤٠ م) . وربما وافق خروج الصلبان فيها آونة اشتداد المحنة على النصارى . وتجدد مراسيم التضيق والإيعات . فتتقد للحال لدى رؤيتها نيران الغضب والتعصب الديني . وتشور الفتن وتُهرق الدماء . كما حدث في بغداد سنة ٤٠٣ (١٠١٢ م) توفيت فيها زوجة بعض النصارى . وكان من رؤسائهم . فخرجت النوائح والصلبان جهرة معها . فانكر ذلك بعض الهاشميين . فرجم الجنازة ولعنها . فضربه بعض غلمان النصراني (الاتراك) بدبوس برأسه فشجّه . وهرب النصارى بالجنازة الى البيعة

الى دار الروم وتبعهم المسلمون ونهبوا البيعة . واكثر دور النصارى
المجاورة لها . وثارت الفتنة . وصلبت العامة جماعة من النصارى^١ .



(١) الثاني عشر من عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي في الخزانة التيمورية

ص ٢٨٤ - ومراة الزمان لسبط ابن الجوزي . بريتيش موزيوم Or. 4519 fo 241^a

كسر الصليبان واحراقها

لما كان الصليب شعار النصرانية . كان هو المقصود في كل اقتصاص او عدا . والهدف الاول لكل محنة او نكبة يراد إحلالها باشياعه في الاسلام . فلا بد اذن لتعداد الاوامر والفتن التي حل فيها بأس السلطان ونقمة العامة بالصليب . فانزلته من منصبه والقتة بين ايدي النهاية والسنة النار . من استقراء كل الحوادث والثورات التي تتابعت على النصرارى منذ الهجرة الى سقوط دولة المماليك . وهو استقصاء طويل الشقة بعيد الغور . يتناول عشرة قرون . ويقتضي مجلداً برأسه . ويضيق عنه هذا المقام . ولعلنا نتوفر يوماً على بلوغ ما في الطاقة منه . وحسبنا القول ان في كل مرة تطاولت فيه ايدي الاطماع . او استتت سيوف السلطان . لنكبة الكنائس ومصادرة النصرارى . كانت الصليبان فيها ولاسيما الذهب والفضة والجوهر . من اول صرعى البغي والانتقام . وقد مر بنا انه لما هجم الافرنج على الاسكندرية في قيادة ملك قبرص سنة ٧٦٢ للهجرة (١٣٦٠ م) واوسعوها قتلاً وسلباً . ونصبوا الصليب فيها فوق باب السدرة امر الأتابك يلبغا الناصري نائب السلطان . بمصادرة ما في الكنائس والديارات . فوضعت اليد على مقتنياتهما وذخايرها . واجتمع من الصليبان وحدها اثنا عشر الف صليب كان نصيبها الكسر او السبك . وقد افردنا لتاريخ كنيسة ميكايل للملكيين بمصر . فصلاً وافياً في مجلة المسرة (سنة ١٩٣٤ صفحة ٤٥٣ - ٤٦١) ومن مطالعته وحده

يتضح حظ سائر الكنائس في الخلافة الفاطمية والعباسية . ومقدار ما نُهب في عهدهما او كُسر وأُحرق من الصلبان على كثرتها في كل الديارات والبيع . وهيهات ان يتهاى لاحد تقدير عدد الصلبان التي تناولتها ايدي الحكام والعامّة . او التقتتها افواه النيران . في مَحَن النصرانية في ايام الحَاكِم بامر الله . والملك الناصر محمد بن قلاوون . وقد بلغ ما نُهدم من الكنائس والاديار عدّة آلاف حتى لم يبقَ في كل انحاء الشام ومصر . كنيسة واحدة سلمت من التدمير والنهب والحراب

ولا بأس مع ذلك من الاستشهاد ببعض النصوص على كسر الصلبان واحراقها حتى في عهد الامويين . نفتصر منها على ما ورد ذكره في كتاب سِير البيعة لابن المقفع . وكتَابِي الخطط والسلوك للمقرئزي . واول ما بدأت مَحَن الصليب في ايام عبد الملك بن مروان . وقد سبق قول البطريرك ميخائيل السرياني . انه امر بتحطيم الصلبان . وقتل الخنازير . واقتدى به اخوه وعامله بمصر عبد العزيز بن مروان . فامر بكسر جميع صلبان مصر حتى الذهب والفضة . ولما خلفه ابنه يزيد بن عبد الملك . كان أسامة بن زيد التنوخي متولي الخراج على النصارى في مصر . فاشتد عليهم ووقع بهم ... ثم هدمت الكنائس وكسرت الصلبان ومُحيت التماثيل وكسرت الاصنام جميعها . وكانت كثيرة في سنة اربع ومائة (١٠١٠ م)

« وفي سنة ٣٧٨ (٩٨٨ م) منع الحَاكِم بامر الله النصارى من

(١) سير البيعة المقدسة لابن المقفع ص ١٣١

(٢) الخطط للمقرئزي ج ٢ ص ٤٩٢ - ٤٩٣

تزيين كنائسهم وحملهم الخوص . . . وكتب لسائر الاعمال بذلك .
 وأحرقت عدة من صلبانهم على باب الجامع العتيق^١
 « وفي سنة ٣٩٤ (١٠٠٣/٤ م) الزم الحاكم بامر الله النصارى
 بلبس السواد وشد الزنار . . . واحرق عدة كثيرة من الصلبان .
 ومنع النصارى من اظهار زينة الكنائس في عيد الشعانين^٢ »
 « وفي سنة ٣٩٨ (١٠٠٧/٨ م) أحرق عدة صلبان على باب
 الجامع بمصر وكتب الى سائر الاعمال بذلك^٣ »
 « وفي يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ (١٣٥٤ م) اجتمع العامة
 بمدينة النحريرية . وهدموا كنيسة للنصارى . وقتلوا منهم عدة
 واحرقوا ما فيها من الصلبان . وجعلوها مسجداً تقام فيه الصلاة^٤ »
 وهذا المقدار كافٍ في مقام الاستشهاد . وليكن آخر كلامنا
 على الصليب في الاسلام .

نيس (فرنسة) - ريفون (لبنان) ١٢ تموز سنة ١٩٣٥



(١) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٢٦٤

(٢) " " ج ٢ ص ٥٠٧

(٣) " " ج ٢ ص ٢٨٧

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك . باريس ١٧٢٧ ص ١٣

فهرس ابواب الكتاب

صفحة	
٥	البسمة
٩	الصليب في اللغة
١٦	الصليب في الحديث
١٨	الصليب في عرف الشعراء
٢٠	القسم والخلف بالصليب
٢٣	التصليب او الارتسام
٢٦	اشكال التصليب
٣٩	قول المسلمين ان الصليب احق بالاطراح والمقت
٤١	حسن رأي بعض المسلمين في الصليب وتبركهم به وتعظيمهم اياه
	الصليب عنوان النصرانية وشعارها . رفع المسلمين الصليبان على المراكب
٤٦	مخادعة للافرنج
	نصب المسلمين الصليبان على الاسوار . واطهارها على الاعلام في الفتن .
٤٨	ودعاؤهم للمسيح وملكوك الروم
٥٢	اجناس الصليب ومعادنه
٥٤	الصليب في الوشم والوشم والنقش
٥٨	الصليب في القراطيس في عهد الامويين
٦٦	الصليب في النقود
٧١	الصليب بين العينين
٧٢	الصليب في الاعناق
٨٠	الصليب تحت الاقدام
٨١	الصليب في الكنائس وفوق قبابها وابوابها
٨٤	الصليب في الاعلام والرايات . والطواف به في الاعياد والجنائز
٩٢	كسر الصليبان واحراقها

فهرس اصول الكتاب

المطبوعات

- البيان والتبيين للجاحظ . المطبعة العلمية . مصر ١٣١١-١٣١٣ هـ .
 اخبار بطاركة كرسي المشرق . رومة ١٨٩٦ م .
 ارشاد الاديب او معجم الادباء لياقوت الرومي . مصر ١٩٠٩-١٩١٦ م .
 الاغاني للاصبهاني . مصر بولاق ١٢٨٥ هـ .
 تاج العروس من جواهر القاموس . لمحمد مرتضى الزبيدي . مصر ١٢٨٦-١٣٠٧ هـ .
 تاريخ الدولة الاتابكية . ملوك الموصل . لابن الاثير . في مجموع الحروب الصليبية .
 باريس ١٨٧٢ م .
 تاريخ الذيل ليجي بن سعيد الانطاكي . بيروت ١٩٠٦ م .
 تاريخ الملوك والامم للطبري . ليدن ١٨٧٦-١٩٠١ م .
 تهذيب تاريخ ابن عساكر . طبعة بدران . دمشق ١٣٢٩ هـ .
 التعليم المسيحي على جاري عادات كنيسة رومية . طبعة رومية . ١٥٨٠ م .
 خزانة الادب لابن حجة الحموي . مصر ١٣٠٤ هـ .
 الخطط للمقرئزي . مصر . مطبعة النيل ١٣٢٤/٢٦ هـ . ومطبعة بولاق ١٢٧٠ هـ .
 ديوان الاخطل . بيروت ١٨٩١ م .
 رحلة ابن جبير . ليدن ١٨٥٢ م .
 رسالة عبدالله بن اسمعيل الهاشمي الى عبد المسيح بن اسحق الكندي . لندرة ١٨٨٥ م .
 سنن ابي داود . مصر ١٢٨٠ هـ .
 سير البيعة المقدسة لابن المقفع اسقف الاشمونين . بيروت
 شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل للخفاجي . مصر ١٢٨٢ و ١٣٢٥ هـ .
 صبح الاعشى للقلقشندي . مصر مطبعة الدار ١٩١٣-١٩٢٠ م .
 صحيح البخاري . المطبعة الحسينية . مصر ١٣٠٤ هـ .
 صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد الكاتب . ليدن

- فتوح البلدان للبلاذري . ليدن ١٨٧٩-١٩٠١
 الفهرست لابن النديم . طبعة مصر
 فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي . مصر ١٢٨٣ هـ .
 القاموس المحيط للفيروزبادي . مصر ١٢٧٢ هـ .
 الكامل لابن الاثير . مصر ١٢٩٠ هـ .
 لسان العرب لابن منظور . مصر ١٢٩٩-١٣٠٨ هـ .
 المجلد لعمر بن متى . رومة ١٨٩٦ م .
 المحاسن والمساوي لابراهيم بن محمد البيهقي . مصر ١٩٠٦ م .
 المدخل لابن الحاج . المطبعة الوطنية . الاسكندرية ١٢٩١ هـ .
 مسالك الابصار لشهاب الدين العمري . مطبعة الدار مصر ١٩٢٤ م .
 معجم البلدان لياقوت الرومي . ليبسيك ١٨٦٦-١٨٧٠ م .
 معجم ما استعجم للبكري . طبعة جوتنجن ١٨٧٦-١٨٧٧ م .
 المفضليات . طبعة ليال . بيروت ١٩١٢-١٩١٣ م .
 نقائض جرير والفرزدق . بيروت ١٩٢٢ م .
 وفادات العرب لابن سعد . طبعة اروبة
 وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان لابن خلكان . مصر ١٢٧٥ هـ .

Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale. Henri Lavoix.
 Paris.

Chronique de Michel le Syrien. Edit. Chabot. Paris.

Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne et de Liturgie. Paris.

Essai sur le règne d'Alexis 1^{er} Comnène. Paris. F. Chalandon.

Patrologie Latine. Abbé Migne. Paris. t. 217.

Principautés Franques du Levant. G. Schlumberger. Paris 1877.

Recueil d'Archéologie Orientale. Clermont-Ganneau. Paris 1888.

Voyage de Hierusalem et autres lieux de la Terre Sainte. Bénard Parisien. Paris
 1621.

Voyage du Seigneur de Villamont. Rouen 1618.

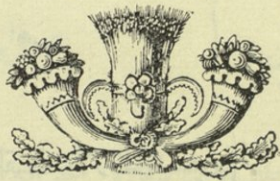


المخطوطات

خزانة باريس رقم ١٤٥٦	}	الاجوبة الفاخرة على الاسئلة الفاجرة .
= الفاتيكان = ٢٤٣		لاحمد بن ادريس القرافي المالكي
= باريس = ٤٤٣٧		إجابة السائل الى معرفة الرسائل
= = = ٣٠٦٥		اسواق الاشواق لابي الحسن ابرهيم البقاعي
= اكسفر د Hunt. 579		اصول الدين وشفاء قلوب المؤمنين للقس دانيال
		ابن الخطاب المارديني
		الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة
= الفاتيكان رقم ٧٣٠		لابن شداد
= الاسكندرية = ٢٠٧٢		الإعلام بتاريخ الاسلام لمحمد بن الجزري
= بريتيش موزيوم رقم Or. 48		تاريخ الاسلام للذهبي
= = = Or. 52		= = =
= اكسفر د Laud. Or. 304		الجزء التاسع = = =
= = = 305		الحادي عشر = = =
= باريس رقم ٦٦٥٣		تاريخ جثاقلقة النساطرة
= = = ١٧٠٤		تشرريف الايام والعصور . بسيرة الملك المنصور
= ديومار يوحنا الصابغ في الشوير		لابن عبد الظاهر
(لبنان)		التبليكن الصغير للراهب فيكن
الخزانة التيمورية . مصر رقم ١٤٩٢	}	الجواهر الثمين في سير الملوك والسلاطين لابن دقاق
Hunt. 182 اكسفر د		الحاوي المستفاد من بديهية الاجتهاد للراهب
= باريس رقم ٣٣٢٩		الطيب المكين جرجس
= = = ٢١٤٠		خريدة القصر لعهد الدين الاصبهاني
		در الحلب في تاريخ اعيان حلب لرضي الدين الحنبلي

	الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة لابن حجر
العسقلاني	خزانة مصر الملكية رقم ١٠٢
ديوان الانشاء او المقصد الرفيع المنشا الحادي الى	
صناعة الانشا	باريس = = ٤٤٣٩
ديوان ابن المعتز . رواية الصولي	= = = ٣٠٨٧
ديوان ابي نواس . رواية الاصبهاني	= = = ٤٨٣٠/١
= = = =	الفاطيكان = = ٤٥٦
= = = =	= = = ٣٦٠
ابن عنين	
ذيل قطب الدين اليونيني على مرآة الزمان لسبط	
ابن الجوزي	خزانة اكسفورد Poc. 132
زبدة الحلب . في تاريخ حلب لابن العديم	باريس رقم ١٦٦٦ =
زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة للامير بيبرس الدوادار	
المنصوري	بريتيش موزيوم Add. 23325 =
السلوك لمعرفة الدول والملوك للمقرئزي	باريس رقم ١٧٢٧ =
عقد الجمان للعيني	= = = ١٥٤٤
عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي . الجزء الثاني	الفاطيكان = ٧٣٥
= = = = =	الخامس الخزانة الظاهرية بدمشق رقم ٤٥
= = = = =	الثاني عشر الخزانة التيمورية . مصر
كتاب البرهان على صحيح الايمان . لاحد النساطرة	خزانة الفاتيكان رقم ١٨٠
كتاب البرهان في القوانين المكملة والفرائض	
المهمله لابي شاكر ابن الراهب	= = = ١٠٤
كتاب الديارات للشابشتي	برلين =
كتاب السنن التي انفردت بها القبط الارثذكسيين	
عن كافة المؤمنين والهراطقة المخالفين . لابنا	
ميخايل اسقف دمياط	خزانة الفاتيكان رقم ١٥٨
كتاب النحلة . للبطريك مكاريوس الزعيم الحلبي	كلية القديس يوسف بيروت =
	رقم ١٤١١

		كتاب مواظ شريفة . والفاظ عالية منيفة للحقير
		في الرهبان فرتريسكوس
٥١٢	خزانة الفاتيكان رقم	
Marsh. 658	اكسفر د =	
= 289	= =	مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي
Or. 4519	بريتيش موزيوم =	= = = = =
		المنقذ من الضلالة . الشاهد لمحمد وعيسى عليهما الصلاة
		والسلام بالرسالة للشيخ محمد بن عبد القادر
٥٠٤٩	خزانة باريس رقم	الشهير بابن الصلف المحلي المالكي
Arab. 2 O Gaul.	ليدن =	نهاية الارب للنويري
٤٥٢٥	باريس رقم =	النهج السيد للمفضل بن ابي الفضائل
٥٨٦٠	= = =	الوافي بالوفيات للصفدي . الجزء الاول
٢٠٦٢	= = =	= = = = الثاني



revue Al-Maçarrat (1934 pp. 453-461) suffirait pour donner une idée des grandes persécutions souffertes par les chrétiens. Rien que pendant le règne de Hakem et de Muhammad, fils de Qalaoun, au Caire, plusieurs milliers d'églises ont été détruites après avoir été saccagées. Aucune, en Egypte et en Syrie, n'a probablement échappé à ce sort. — Le Khalife Abd-el-Malek a été le premier qui ordonna d'abattre les croix, imité en cela par son frère Abd-el-Aziz, gouverneur d'Egypte, et par son fils qui lui succéda à Damas. — Aucun Khalife n'a fait autant de mal au christianisme qu'Al-Hakem, le Néron de l'Islam. — En 988, 1003/4, 1007/8 et 1010, une chasse en règle a été faite à la Croix. On recherchait surtout celles en or et en argent. Au temps des Mameluks, les églises étaient souvent dépouillées de leurs trésors. En 1354, une foule furieuse envahit une église dans la Haute-Egypte, la pille, égorge plusieurs chrétiens, et fait un autodafé de toutes les croix trouvées. — Après le sac d'Alexandrie par Pierre Lusignan en 1365, le vice-roi d'Egypte Yalbugha confisqua tous les trésors des églises dont douze mille croix, en grande partie en or. 92

Table des matières 95

Bibliographie : imprimés 96

: manuscrits 98



de leurs cavaliers. — Seul document de la conquête musulmane, mentionnant la défense de construire de nouvelles églises, battre la simandre (sorte de cloche) et promener la Croix en public. — Un des premiers gouverneurs de Syrie prohibe aussi toute manifestation de la Croix. — Les juifs s'empresstent de faire disparaître tous ces emblèmes de christianisme. — Plainte d'un Chrétien ami de l'Emir. Ce dernier se ravise et ordonne de punir un Juif qu'il voit courir sur le toit de l'Eglise de S^t Jean Baptiste, pour s'emparer de sa Croix. Il est poursuivi et mis à mort. Les chrétiens recouvrent leurs libertés, sauf à Damas et à Homs. — Le Khalife Merouanide Abdel-Malek fait exclure les croix et abatre les porcs. — Abolition de cette mesure. — Les Croix portées en triomphe, les jours de Pâques et des Rameaux. — Description littéraire. — La Croix continue à se manifester jusqu'en 849. Le Khalife Al-Mutawakel défend d'employer des chrétiens, de les faire instruire et de promener la Croix les Dimanches des Rameaux. — Même attitude du Fatimite Al-Hakem en 1011. — Détails historiques. — Les chrétiens du Sultan Seljuicide Qilige Arslan étaient libres de célébrer leurs fêtes et de promener la Croix moyennant un versement de trois mille dirhems. — Les nouveaux Catholicos Nestoriens étaient reçus partout avec des croix, des évangiles, des cierges et de l'encens. On étendait à leurs pieds des tapis et des étoffes. L'habitude d'étaler sur les fenêtres et les murs des maisons, des tissus de soie ornés de croix, est-elle d'origine franque? — Citation à ce propos d'un témoignage d'un auteur Alepin. — Les Croix se portaient surtout devant les convois funèbres, et quelquefois en présence des Khalifes Fatimites. — Fureur du fanatisme populaire. — La femme d'un notable chrétien étant morte à Bagdad, en 1012, un Chérif Hachimite maudit le convoi chrétien et lui jette des pierres. Il est blessé par un Turc. Emeute de la foule. Les chrétiens sont poursuivis, l'église saccagée et des maisons détruites. Quelques chrétiens sont mis en croix. 84

CHAPITRE XX

Les croix brisées et brûlées

Pour énumérer toutes les fois où les Croix ont été saisies, brisées et jetées au feu, il faudrait refaire l'histoire des dix siècles de l'Islam en Orient. — L'histoire du christianisme d'après les sources arabes jusqu'à la chute des Mameluks est encore à écrire. Peut-être sera-t-elle entreprise un jour malgré les très grandes difficultés qui s'y opposent. La monographie de l'Eglise Melkite de S^t Michel au Caire que nous avons publiée dans la

chrétiens. Il leur imposa le port d'une lourde Croix en bois. — Au Caire, le triste fou sanguinaire Al-Hakem se distingue entre tous les Fatimites par sa rage contre les chrétiens. Non content de les contraindre à se charger le cou de croix de bois bien pesantes et de paraître ainsi dans les assemblées et sur les marchés, il exigea qu'ils les portassent aussi dans les bains publics, afin qu'on puisse bien les reconnaître, et finit par leur désigner des bains privés sur lesquels il fit dessiner des croix. — En 1012, il ordonna que les croix portées par eux fussent de la longueur d'une coudée et d'autant de largeur. — Un Sultan des Mameluks l'imita en 1344 et fit promulguer un édit prescrivant aux chrétiens d'Egypte et de Syrie de ne fréquenter les bains publics qu'avec des croix au cou. 72

CHAPITRE XVII

La Croix foulée aux pieds

Insulte des musulmans traçant la Croix sur la terre, et essayant de contraindre certains chrétiens de passage à la mépriser et à marcher dessus. — Des apostats de marque doivent quelquefois fouler aux pieds des croix d'or rougies au feu, pour prouver la sincérité de leur conversion. 80

CHAPITRE XVIII

La Croix à l'intérieur et à l'extérieur des Eglises

Poésie Islamique signalant la Croix dans les Eglises. — Guerre déclarée par le Khalife Fatimite Al-Hakem en 1011 à tous ces signes chrétiens. — Les croisés en 1102/3 exigent du Roi d'Alep Redwan de faire hisser une grande cloche sur la citadelle et une Croix sur le minaret de la grande mosquée. — Acceptation du roi et refus du Cadi, gouverneur de la ville. — Autorisé par les Francs, le roi fait mettre la croix sur la coupole de l'Eglise de Sainte Hélène à Alep. Elle y demeure jusqu'à 1124, date à laquelle les Croisés ayant assiégé la ville et profané des tombeaux musulmans, le même Cadi gouverneur enlève aux Chrétiens d'Alep quatre églises dont celle de Sainte Hélène et les convertit en mosquées après en avoir abattu les croix. . . . 81

CHAPITRE XIX

Les drapeaux avec la Croix tolérés ou prohibés les jours de fêtes et de funérailles

Al-Akhtal, poète Taglibite, chante la Croix que les chrétiens avaient coutume de porter avec l'image de S^t Serge au devant

texte aux Jacobites de Jérusalem pour imprimer la Croix sur leurs fronts, avec un fer rougi au feu, croyant ainsi effacer le péché originel. 71

CHAPITRE XVI

La Croix au cou

Le port de la Croix était le signe distinctif du Christianisme dans l'Islam. — Croix d'or aux cous des chrétiens, chefs Arabes, venus pour causer avec Mahomet. — Courage et fierté du poète Chrétien Al-Akhtal, qui, avec la Croix ostensiblement suspendue sur la poitrine, entrait chez les Khalifes, la barbe encore ruisselante de vin, et, après avoir dans sa poésie insulté les Ansars, premiers adeptes de la nouvelle religion, osaït déclarer qu'il n'accepterait jamais de braire comme un âne (allusion aux cris des Muezzins). — Croix d'or et d'argent, parures des garçons et jeunes filles, chantées par des poètes musulmans. — Souhait de l'un d'eux d'être une Croix, pour rôder autour du cou d'un jeune garçon dont il était épris, admirer sa joliesse et respirer son parfum. — Khalifes Abbassides, amateurs de belles captives ou esclaves grecques, si fières de porter avec art et coquetterie ces bijoux chrétiens — Al-Mahdi, surprenant au cou de sa favorite une croix d'or se promenant sur une poitrine d'argent entièrement dégagée, ne peut se retenir de la caresser et de l'arracher. Cri de la jeune femme reçuilli par lui dans un vers de circonstance. — Son petit-fils Al-Mamoun hérite de lui avec le trône, cette passion de collectionner les belles grecques. Un dimanche des Rameaux, réunion d'une vingtaine de jeunes servantes grecques, habillées de brocarts, parées de leurs éblouissantes croix d'or byzantines, et serrant leurs fines tailles dans la ceinture réglementaire. — Leur admission en sa présence avec, à la main, des branches de palmier et d'olivier. Après avoir, sans doute, écouté leurs hymnes Byzantines du jour, grisé par tant de beauté et d'art, il fait appeler son chantre particulier, et lui dicte quatre vers composés en leur honneur, séance tenante. En les entendant chanter, le Khalife vide les coupes et s'enivre. — Danses variées. — Récompense de mille dinars accordée au chantre, et une autre de trois mille, tombant en pluie d'or sur les têtes des belles artistes. — Autres citations de poètes musulmans exaltant la Croix. — Un descendant de Saladin embrasse la religion chrétienne, et attache une croix d'or sur sa poitrine. — Al-Mutawakel, premier Khalife Abbasside, qui institua la persécution systématique des

et dont se fournissait l'Empire Byzantin. Cette formule chrétienne en Grec, figurant sur les documents officiels et les actes religieux, était aussi tissée en bordure des étoffes fabriquées en Egypte. Le Khalife Omayade Abd-el-Malek, fils de Merouan, a été le premier à s'en apercevoir. Il la fit supprimer en l'an 76 de l'Hégire (695 J. C.) et lui fit substituer une formule musulmane. Le fond de ce récit plus ou moins authentique a été à une date plus récente, enjolivé par les historiens Abbassides et attribué au fameux Khalife Haroun er-Rachid. — Critique du texte tel qu'il nous est rapporté. — Tendances des écrivains et chroniqueurs Abbassides à atténuer le prestige des Omayyades pour flatter la cour de Bagdad, et à ridiculiser l'attitude des Empereurs de Byzance, pour exagérer la prépondérance de l'Islam. . . . 58

CHAPITRE XIV

La Croix sur les monnaies

Du temps de Mahomet, les pièces d'or byzantines portant la Croix circulaient dans toute l'Arabie. Cette monnaie chrétienne avec l'emblème du Christ a été toujours admise dans le premier siècle de l'Islam sans aucun scrupule. L'administration des finances de l'Etat Omayyade et la comptabilité sont restées purement grecques sous la direction des parents de Saint Jean Damascène et des Melkites catholiques de la Syrie. Elles furent arabisées en 695 par le second Khalife Merouanide ; mais la Croix n'a pas cessé pour cela de paraître encore pendant un certain temps sur la monnaie musulmane. — Quelques spécimens donnés en exemple. — Plus tard, au temps des Mameluks, les ducats de Venise étaient admis dans toutes les villes de l'Islam avec leurs croix. — Erreur de l'historien Maqrissi condamnant l'emploi de la monnaie crucifère. — Monnaies frappées à Ephèse et à Aïdine par les princes Turcomans avec la Croix et une légende latine. 66

CHAPITRE XV

La Croix sur le front

Certains Nestoriens avaient l'habitude de suspendre la Croix comme une amulette sur le front des garçons. Lorsque les Khorrassanides, partisans des Abbassides, entrèrent en Egypte, poursuivant le dernier des Merouanides, ils recommandèrent aux chrétiens, pour être épargnés, de se signaler par des Croix attachées sur leurs fronts, leurs habits et leurs maisons. — Un passage de l'Evangile de saint Mathieu (3 : 11) servait de pré-

CHAPITRE XI

Les matières dont était faite la croix

Bois, pierre, verre, ivoire, cuivre, argent, or, pierres précieuses, autant de matières dont on se servait pour confectionner la croix. L'argent et l'or dominaient. — L'église d'Abi-Hour en Egypte était renommée par l'abondance de ses lampes d'argent et de ses croix d'or. — En 1365, le vice-roi Yalbugha, pour se venger de l'attaque du roi de Chypre contre Alexandrie, fit saisir tous les trésors des couvents et églises dont douze mille croix d'or. Une seule pesait environ 4 kg. 600. — Les Bédouins eux-mêmes portaient au cou des croix en or. — Le fameux poète chrétien Al-Akhtal, chantre des Omayyades, ne se séparait jamais de sa croix d'or et était fier de la porter en présence des Khalifes. 52

CHAPITRE XII

Habitude qu'avaient les Chrétiens de dessiner la Croix sur leurs corps, dans les tatouages etc. . . Dessin de la Croix dans la fabrication du verre

De tous temps, les Bédouins marquaient la croix au fer rouge sur eux-mêmes et sur leurs troupeaux. — Les Jacobites le faisaient sur les tempes et les mains, croyant par là se purifier du péché originel. — Témoignage des pèlerins de Jérusalem à ce sujet. — En 1314, un chrétien, secrétaire d'un grand Emir égyptien, est mis à mort pour avoir converti un musulman et tracé la Croix sur son bras. — Très curieuse biographie d'un calligraphe musulman, qui, épris d'une chrétienne, et pour lui prouver son amour, s'est laissé tatouer en forme de croix sur le crâne. — La Croix, dessinée sur des meubles, ustensiles, maisons, boutiques, moulins, etc. — Défense faite aux musulmans par les juristes d'acheter la farine dans les moulins chrétiens, marqués par des croix. — Digression littéraire sur les filtres de vin, portant la Croix en terre rouge. — Fabrication chrétienne des coupes de vin dessinant des prêtres lisant l'Évangile et tenant la Croix. — Citation de quatre vers à l'appui. 54

CHAPITRE XIII

La Croix sur le papyrus

Après l'arrivée des Arabes en Egypte, les ouvriers Grecs et Coptes ont continué à tracer la formule du signe de la Croix en filigrane sur le papyrus que l'Administration Omayyade employait

CHAPITRE IX

La Croix emblème du christianisme.

**Pour tromper les Croisés, des guerriers musulmans hissaient
la Croix sur leurs galères**

En 1190, durant le siège de Saint-Jean d'Acre, Saladin donna ordre d'affréter un bateau de Beyrouth qu'il fit maquiller, charger de vivres, d'armes, de soldats, et sur lequel il fit exposer quelques prisonniers Croisés, accompagnés de musulmans parlant la langue franque, rasés et habillés à leur mode. Ils emmenèrent avec eux des porcs et hissèrent la Croix sur le mât. On les prit pour des Croisés venant au secours et on leur permit de s'approcher du port. Le bateau ne tarda pas à débarquer ses troupes à Saint-Jean d'Acre. — Une pareille ruse fut renouvelée en 1267 au temps des Mameluks dans une attaque contre Chypre, mais échoua piteusement. 46

CHAPITRE X

La Croix sur les remparts et les étendards musulmans.

Cris des insurgés en faveur du Christ et des Empereurs Grecs.

Dès 875, des bannières munies de croix furent trouvées dans l'armée de Yacoub ben el-Laïth. En 1025, des Africains, assiégés dans la citadelle d'Alep, se voyant refuser la paix, hissent des croix sur les remparts et commencent à crier : « Victoire au roi Basile ». — En 1030 une insurrection eut lieu à Bagdad. Des étendards avec des croix furent promenés par des Turcs mécontents. — En 1089, dans une grande révolution populaire, les deux clans ennemis Sunnites et Chiites arborent à la fois des croix sur des roseaux, et tandis que les uns crient « Victoire au Khalife Mustanser » (d'Egypte) les autres clament « Victoire au Christ ». On injuria Mahomet, ses épouses et ses compagnons. Les troubles n'ont cessé que sur l'intervention des arabes Maziadites que le Khalife Abbasside se vit obligé de solliciter. Ces importantes manifestations pro-chrétiennes en plein siège du khalifat, au vu et au su des suprêmes autorités religieuses, sont autant de signes révélateurs qui mériteraient d'attirer l'attention de l'historien de l'Islam. — Chaque fois que le célèbre Nicéphore Phocas remportait une victoire sur les musulmans, il faisait dresser deux tentes, dont l'une, surmontée d'une Croix, servait de refuge à tous ceux qui, désirant se sauver, acceptaient d'embrasser le Christianisme. 48

aux feux de l'enfer tous ceux qui se signent avec trois doigts, de droite à gauche. — La manière latine de se signer avec cinq doigts adoptée au 16^e siècle par les Maronites, et au 17^e par les Syriaques Catholiques. — Témoignage d'un ancien auteur Nestorien assurant que son Église a toujours conservé l'usage des cinq doigts. — Quelques écrivains Musulmans prétendent que les Francs se signaient avec cinq et dix doigts. 26

CHAPITRE VII

La Croix, au dire des Musulmans, devrait être plutôt méprisée et rejetée

Controverse musulmane et chrétienne au sujet de la Croix. — Attaque de deux auteurs musulmans disant que la Croix est un signe d'opprobre et d'insulte que les Chrétiens seraient mieux inspirés de cacher et de faire oublier. S'ils croient l'honorer parce que leur Dieu est monté dessus, ils seraient plus logiques de réserver cet honneur à l'âne que Jésus a monté dans sa gloire lorsqu'il fut reçu à Jérusalem aux cris de « l'Hosanna ». Ils devraient en conséquence respecter et parfumer une pareille monture vivante plutôt qu'un bois mort. 39

CHAPITRE VIII

Considération que certains musulmans avaient pour la Croix, qu'ils honoraient et invoquaient quelquefois dans leur détresse

Un parent du Khalife Abbasside Mansour, a voulu éprouver la puissance de la Croix. Il l'implora, dit-il, durant le danger et fut exaucé. — La fameuse Zobeidah, mère du Khalife Amine frère de Mamoun et femme de Haroun er-Rachid, protégeait les chrétiens, intercédait en leur faveur, leur obtenait l'autorisation de relever leurs couvents et construire leurs églises et leur faisait don de bannières et de croix en or et en argent. — Quelques poètes clients des monastères Nestoriens dont ils appréciaient l'excellent vin, se donnaient le malin plaisir de faire étalage de sentiments chrétiens et d'embrasser la Croix pour gagner la sympathie des religieux et des religieuses. — Des ministres mêmes des Khalifes Abbassides d'origine chrétienne, gardaient sur eux la Croix comme relique. — Les empereurs de Byzance accordaient la Croix à ceux des musulmans qu'ils voulaient récompenser et distinguer. — Deux vers d'un Emir Hamdanite déclarant qu'il préférerait se réfugier sous l'étendard de la Croix plutôt que de se baisser en présence d'un Cadi (juge musulman) 41

habits ornés de croix. — Son ordre aux nouveaux convertis d'enlever l'idole de la croix suspendue aux cous. 16

CHAPITRE III

La Croix aux yeux des poètes musulmans

Citation de poésies disant que la Croix n'est qu'un « bois », un « Baal », une « idole » et rarement le « Dieu des Chrétiens ». — Le Khalife Omayyade Walide, fils de Yazide, chante la beauté d'une chrétienne qu'il a vu embrasser la Croix. Il aurait souhaité, dit-il, être à la place de la Croix et se faire ensuite damner au feu de l'enfer. 18

CHAPITRE IV

Le jurement par la Croix

Habitude qu'avaient les Chrétiens et même certains Musulmans de jurer par la Croix. — Texte du serment officiel exigé par les Mameluks de tout Melkite, c'est-à-dire de tout Grec et Croisé franc ou arménien. 20

CHAPITRE V

Termes arabes pour désigner le signe de la Croix

Critique philologique. — Citation poétique. — Un neveu du roi d'Andalousie (+1297) se tournait chaque matin vers le soleil levant et se signait à la manière des Chrétiens. 23

CHAPITRE VI

Différentes manières de faire le signe de la Croix

Nombreux passages d'ouvrages inédits établissant que les Jacobites, Coptes, Syriaques, Abyssins, Pauliciens et anciens Maronites se signaient en se servant de l'index. — Justification présentée par certains de leurs auteurs ecclésiastiques. — Erreur des Jacobites, Coptes, Nestoriens et Musulmans prétendant que les Grecs-Melkites et les Latins se signaient avec deux doigts seulement, erreur provenant de la confusion qu'ils faisaient entre la manière de donner la bénédiction et celle de faire le signe de la Croix. — Etrange réfutation du signe de la Croix avec deux doigts, par un ancien auteur jacobite de Mardin. — Le signe de Croix avec trois doigts en usage dans les Eglises Byzantines et Arméniennes jusqu'à ce jour, et dans l'Eglise Latine jusqu'au 13^e siècle. — Témoignage catégorique du Pape Innocent III. — Texte d'un sermon en arabe d'un Franciscain d'Alep en 1643 vouant

LA CROIX DANS L'ISLAM

RÉSUMÉ

Avant-propos

Le signe de la Croix type de la formule musulmane : « au nom du Dieu clément et miséricordieux. » — Les Coptes enclins toujours à copier les Musulmans dans le choix de leurs noms, de leurs costumes, et jusqu'à se laisser circoncire comme eux, adoptent aussi leur formule et l'inscrivent quelquefois au frontispice de leurs livres sacrés. — Mention de quelques bibles et évangiles manuscrits portant cette inscription au lieu du signe de la Croix. 5

CHAPITRE I

Etude lexicographique sur le mot « Salibe » (Croix) et ses dérivés dans la langue arabe

Quelques dictionnaires définissent la croix comme un « mihra-be » chrétien, c'est-à-dire la direction vers laquelle les Nazaréens se tournent au moment de la prière. Terme spécial adopté par les Musulmans pour désigner le bois sacré. — Citation à ce propos de deux passages inédits de l'historien Dhahabi mentionnant en 1189 l'arrivée d'un messenger envoyé au Khalife par Saladin avec la Sainte Croix jetée au seuil de la porte Noubi à Bagdad, et en 1219, le geste du Sultan Ayoubite Muhammad el-Kamel offrant après la reddition de Damiette la vraie Croix au chef des Croisés à St Jean d'Acre afin d'obtenir l'élargissement immédiat des prisonniers musulmans. — Les Chrétiens qualifiés d'adorateurs de la Croix. — Titre de chef de la « Communauté Croisée » accordé dans le protocole au Patriarche des Melkites et au roi de Cilicie, et celui de « Trésor ou ornement de la secte des Croisés » reconnu aux rois de Constantinople, de Géorgie et au doge de Venise. 9

CHAPITRE II

La Croix dans la tradition musulmane

Jésus-Christ, dit-on, descendra à la fin du monde briser la croix et tuer le porc. — Mahomet aurait prohibé de prier avec des

UNIVERSITY OF ALABAMA LIBRARY
SERIALS ACQUISITION DEPARTMENT

DOCUMENTS

1901

THE HISTORY OF THE PATRIARCHAL SEES

IV

IN CROSS AND ISLAM

BY THE REV. F. W. H. MONTAGU, D.D.
OF THE UNIVERSITY OF ALABAMA

THE
PUBLISHERS

UNIVERSITY OF ALABAMA LIBRARY

1901

PUBLICATIONS DE LA REVUE « AL-MAÇARRAT »
ORGANE DU PATRIARCAT GREC MELKITE-CATHOLIQUE

DOCUMENTS INÉDITS

POUR SERVIR

A

L'HISTOIRE DES PATRIARCATS MELKITES

VI

LA CROIX DANS L'ISLAM

ÉTUDE LITTÉRAIRE, RITUELLE ET HISTORIQUE
D'APRÈS LES SOURCES ISLAMIQUES

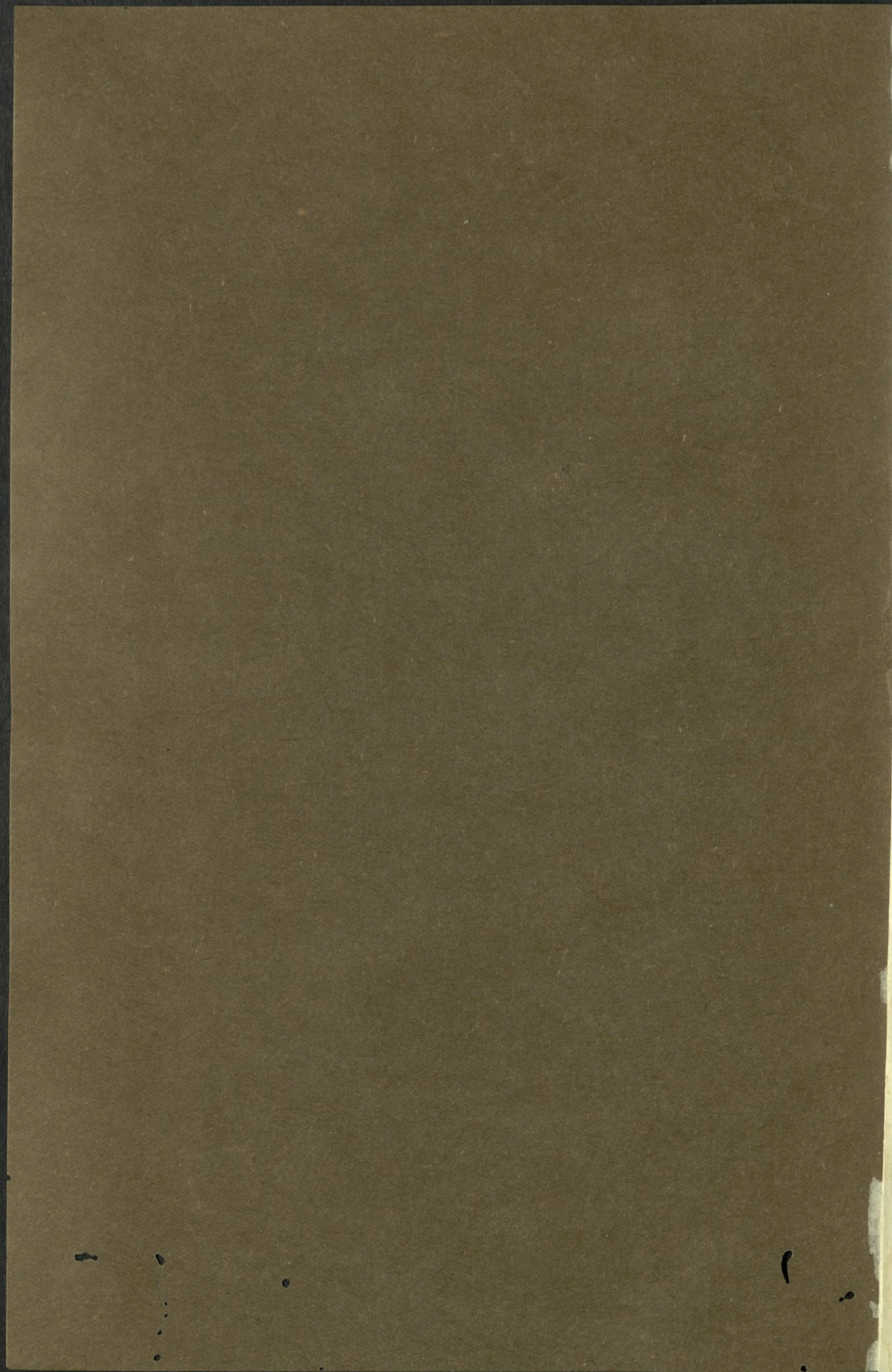
PAR

HABIB ZAYAT

HARISSA (LIBAN)

IMPRIMERIE DE SAINT PAUL

1935



247.9:Z39sA:c.2

زيات، حبيب نقولا

الصليب في الاسلام

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01008841

American University of Beirut



247.9

Z39sA

c.2

General Library

247.9
Z393A
c.2